كيف دخل الإسلام

مصر

إعداد

بكر محمد ابراهيم

الناشر
مركز الراية للنشر والأعلام

- مركز الراية هو دار نشر حرة مستقلة تتبنى قضايا جادة وهادفة
- وقد تم تأسيس هذا المركز من وحى إحساسنا بدور الكلمة المطبوعة فى التعبير عن قضايانا المصيرية، وكشف أوجه القصور، وتصحيح الأوضاع المقلوبة. أو المفاهيم الخاطئة، وإثراء حياتنا الفكرية والثقافية.
- ورغم أن المركز لا يزال فى بداياته الأولى إلا أن حسن استقبال القارئ العربى من المحيط إلى الخليج لمطبوعاتنا جعلنا ندرك حجم المسئولية الملقاة على عاتقنا. ونحاول قدر جهدنا تقديم كل جديد وجاد وهادف.

الناشر

أحمد فكرى

اسم الكتاب	كيف دخل الإسلام مصر
اسم المؤلف	بكر محمد إبراهيم
المراجعه اللغويه	المؤلف
رقم الإيداع	٢٣٩٥٣ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولى	977-354-750-9
جمع الكترونى	فور إتش م: ٦٦٧٤٣٣٥/ ٠١٠
فكرة الكتاب	أحمد فكرى
الإشراف العام	كريم أحمد فكرى

الطبعة الأولى

٢٠٠٧

مركز الراية للنشر والإعلام

الإدارة والتوزيع : ٣٠ ميدان الحسين ـ مكتبة فكرى القاهرة ـ جمهورية مصر العربية

ت : ٥٩٢٦٢١٩

البريد الإلكترونى :

e- mail: alraya 93 @ hotmail.Com

e- mail : alraya 93 @ Yahoo.Com

فاكس : ٠٠٢٠٢٧٨٧٠٩٠٦

المقدمة

الحمد للة الذى تفضل علينا بجزيل فضلة ونعمة من أفضلها نعمة الايمان والاسلام والصلاة والسلام على نبينا محمد خير الانام وعلى اله وصحبة الكرام

أشهد أن لا الة الا اللهوحدة لاشريك لة شديد المحال ،وأشهد أن سيدنا محمدا عبدة ورسولة وخيرته وحبيبه الذى علم الامم وربى الاجيال .

وبعد

فهذا الكتاب فى فتح مصر يعرض لدخول الاسلام الى مصر وكتاب الرسول الى المقوقس والمعارك التى دارت بين المسلمين والروم ومنها معركة حصن بابليون .

وقد كان أهل مصر قد سمعوا عن عداله المسلمين وسماحتهم ورحمتهمبعد أن عانوا اضطهاد الرومان لبلادهم وشعبهم وارهاقهم بالضرائب وسومهم سوء العذاب والنكال فكانت عواطفهم مع المسلمين

وبذلك انتصر الاسلام فى مصر وانتشرت اللغه العربيه وبادر معظم أهل مصر الى اعتناق الاسلام عن طواعية ورضا واقتناع

وأصبحت مصر رباط الاسلام وساهمت مصر وشعبها بنصيب وافر فى فتح كثير من البلدان ونشر الاسلام فيها.

وتمر السنون فيتصدى شعب مصر للحملات الصليبية ويدمرها على يد القائد البطل صلاح الدين الايوبى.

وتم هزيمة المغول فى عين جالوت على يد السلطان قطز سلطان مصر وبجيش مصر

ولا غرو فقد امتدح القرآن الكريم مصر وكذلك مدحها رسولنا ﷺ فى أكثر من حديث.

هذا وبالله التوفيق

المؤلـــف

بكر محمد إبراهيم

مصر والإسلام

لقد أعطى الإسلام مصر كثيراً، أنقذها من ظلم الرومان وطغيانهم، حيث كانوا يعتبرون أنفسهم سادة ويعدون أهل البلاد عبيداً، وقدم الإسلام لمصر حضارة زاهية تنظم شئون الدين والدنيا.

وكما أعطى الإسلام مصر أعطت مصر الإسلام، فأصبحت أرضاً تذود عن الإسلام كل عدوان، وفى المجال الحضارى قدمت مصر الكثير فتألق بها الأزهر الشريف، وكتب المصريون أروع كتب فى الدراسات الإسلامية فلنسر مع الإسلام في مصر خطوة إثر خطوة.

الخطوات الأولى لدخول الإسلام مصر:

لم تكن مصر بعيدة عن العربِ قبل الإسلام. فقد هاجر العرب من الجزيرة العربية إلي الأقطار المحيطة بها عدة هجرات، وكانت مصر ضمن البلاد التى هاجروا إليها.

وكان التجار العرب يسيرون بقوافلهم إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب، وكان عمرو بن العاص - كما يقول ابن عبد الحكم - قد دخل مصر فى الجاهلية وعرف طرقها ورأى كثرة خيراتها.

وكانت فضائل مصر شائعة عند العرب من أقوال من زاروها بل من أقوال الرسول ﷺ الذى روى عنه قوله : «من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى أرض مصر إذا أخرقت، وفي رواية إلي أرض مصر إذا أزهرت». والجنات بحافتى النهر من أوله إلى آخره فى الجانبين من أسوان، فهى جنات متصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء والزرع بين الجبلين من أول مصر إلى آخرها مما يبلغه الماء، وروى عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه كان يقول : «إن نيل مصر سيد الأنهار والديار المصرية كانت درة التاج فى دولة هرقل».

وكان الرسول ﷺ يتوقع أن تفتح مصر، وقد تنبأ بذلك وأوصى بسكانها القبط، فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً»، وفى رواية أخرى قال : «الله الله فى قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله».

وقد تحدث الرسول ﷺ عن صلة المصاهرة بين العرب والمصريين فقال : «إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا، فإن لهم ذمة ورحما، فإن "هاجر" أم النبى إسماعيل منهم»، ومثل ذلك ما رواه أبو ذر عن الرسول ﷺ «إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما».

كتاب الرسول إلي المقوقس يدعوه وقومه للإسلام :

بعد أن انهار أعداء الإسلام (اليهود وقريش) بقوة المسلمين أو بالمعاهدات منعهم لم يضيع الرسول وقتاً، واتجه عقب ذلك فوراً ليخطو خطوة جديدة فى نشر الإسلام فى أطراف الجزيرة العربية وحولها، وكان ذلك فى العام السادس والسابع للهجرة بعد الانتصار على اليهود فى العام الخامس

وبعد صلح الحديبية فى العام السادس، ويروى الطبرى أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات غداة فقال لهم : «إنى بعثت رحمة للعالمين وللناس كافة فأدوا عنى يرحمكم الله».

وفى الحديث عن كتب الرسول للملوك والرؤساء نسجل نقاطا خمسا مهمة:

١- تجاهل الرسول تماما الامدادات الاستعمارية التى كان يقوم بها الروم والفرس ضد بعض المناطق العربية. وكتب الرسول ﷺ لولاة هذه المناطق

مباشرة، كتب للغساسنة ولاة الروم على دمشق وللمقوقس وإلى مصر، وكتب مباشرة إلى باذان وإلى الفرس على اليمن، وتعتبر هذه خطوة جريئة رائعة ذات مغزى عظيم.

٢- صيغت كتب الرسول بمنتهى الحكمة والبراعة، فالرسول فيها سمح، يدعو ولا يهدد ويخاطب الملوك والرؤساء بألقابهم ويعترف بمكانتهم، ويقرر أن سلطانهم فى ظل الإسلام باق لهم، وهو بذلك يؤكد أنه ليس طالب مُلك، ثم هو يذكر أن هناك زكاة فى أموال الأغنياء، ولكنه يؤكد أن الزكوات والصدقات لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، وإنما تؤخذ من الأغنياء المسلمين وترد على فقرائهم، وهو بهذا يؤكد أنه ليس طالب مال.

٣- كان ﷺ يخاطب كل ملك حسب ظروفه، فإن كان من أهل الكتاب أشار إلي ما بين الأديان السماوية من روابط، وإذا كان من غيرهم أشار إلى التزام البشرية بالعودة إلى الله وترك عبادة ما سواه.

٤- اختير المبعوثون بحيث يعرف كل منهم لغة من سيرسل إليهم.

٥- امتدت فترة إرسال المبعوثين فى المدة بين الحديبية سنة ٦هـ ووفاة الرسول ﷺ .

نص كتاب رسول الله إلى المقوقس زعيم مصر:

قلنا من قبل إن الرسول ﷺ تجاهل الحركات الاستعمارية فكتب مباشرة إلى والى الروم على مصر (المقوقس) وهو بهذا يعلن عدم اعترافه بسلطان الروم على مصر، وهو فى الوقت نفسه يرفع من شأن المقوقس ويجعله يحس بأن أمر مصر بيده، ويرفع من شأن المصريين بأن يوضح أن أمرهم بأيديهم، وكان الذى يحمل كتاب الرسول إلى المقوقس هو حاطب بن أبى باتعة وذهب به إلى الإسكندرية عاصمة مصر أنذاك ونصه :

بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد، فإني أدعوك بدعوة الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) ﴾ [آل عمران : ٦٤].

فلما قرأ المقوقس الكتاب سأل حاطبا : ما منع صاحبك إن كان نبيا أن يدعو على من أخرجوه من بلده فيسلط الله عليهم السوء ؟

فقال حاطب : وما منع عيسى أن يدعو أولئك الذين تآمروا عليه ليقتلوه فيسلط الله عليهم ما يسحقهم؟

قال المقوقس : أنت حكيم جئت من عند حكيم.

وبعد حوار وتفهم دعا المقوقس كاتبا يكتب العربية وطلب منه أن يكتب ردا على رسالة الرسول وأورد ابن عبد الحكم نص كتاب المقوقس للرسول وهو :

لمحمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط بمصر سلام عليك .. أما بعد، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد كنت أعلم أن نبيا قد بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة وبعض عسل :بنها: والسلام.

ويقول ابن عبدالحكم إن حاطبا لما سلم كتاب الرسول إلي المقوقس قبل المقوقس الكتاب وأكرم حاطبا وأحسن نزله وضم الكتاب إلى صدره، وقال : هذا زمن يخرج فيه النبى الذى نجد نعته وصفته فى الإنجيل، وهو لا يجمع بين الأختين فى نكاح أو ملك يمين، وإنه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة، وإن أتباعه

الأولين من المساكين وإن خاتم النبوة بين كتفيه، فأهدى للرسول أختين هما مارية وسيرين، ولم يكن هناك أجمل منهما وهما من قرية أنصتا بمحافظة المنيا.

وقد عرض الرسول على الأختين الإسلام والنطق بالشهادتين فأسرعت مارية واستجابت فاختارها الرسول لنفسه، واستجابت بعد ذلك سيرين فأهداها إلي حسان بن ثابت.

خطوة أخرى فى خطوات دخول الإسلام مصر:

عندما تم النصر للمسلمين فى الشام بعد معركة اليرموك، انقسم جيش المسلمين قسمين اتجه قسم للشمال بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ومعه خالد بن الوليد، واتجه القسم الآخر للجنوب بقيادة عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة، وبقى يزيد بن أبى سفيان فى منطقة دمشق ليحمى ما حققه المسلمون من انتصارات بها.

وقد استطاع أبو عبيدة وخالد أن يستوليا على حمص وحماة وقنسرين واللاذقية وحلب واستطاع عمرو وشرحبيل أن يستوليا على عكا ويافا.

ولم يبق أمام المسلمين إلا القدس وقد دافع عنها الروم دفاعا شديدا أنزل كثيرا من الخسائر بجنود المسلمين، ولكن المسلمين صبروا، ولعبت السياسة دورها، فقد اتصل المسلمون بالمسيحيين فى القدس وكان المسيحيون يعانون المتاعب من حكم الروم، كما كان المسلمون يعظمون القدس ولا يريدون مواصلة الضحايا من الجانبين، وعلم قائد الروم "أرطبون" بهذه المناورات وخشى نتائجها فهرب إلي مصر وطلب المسيحيون الصلح على أن يحضر الخليفة بنفسه لتسلم المدينة ويتعهد لسكانها بالحرية الدينية، فكتب عمرو إلي عمر بذلك فحضر عمر وكتب بنفسه كتاب الأمان المسمى "العهدة العمرية".

لقد بذل المسلمون آلاف الضحايا فى حربهم ضد الروم في فلسطين فأصبحت هذه الديار بذلك غالية عليهم، فكم لهم بها من أرواح أزهقت ودماء أريقت.

مصـــر:

ليس بين فلسطين ومصر حدود طبيعية، وكان عمرو بن العاص عندما استقبل عمر بن الخطاب فى "الجابية" سنة ١٨ هـ خلا به واستأذنه فى السير إلي مصر فأذن له، ويقرر الواقدى أن عمر بن الخطاب أرسل كتابا إلي أبي عبيدة عقب الانتهاء من حرب الشام يقول فيه : إذا قرأت كتابى هذا فأمر عمرو بن العاص أن يتوجه بعسكره إلى مصر.

ومما شجع على ذلك أن جيوش الروم التى تقهقرت من فلسطين تجمعت فى مصر ففتح مصر إذن كان عملا طبيعيا وبدونه ما كانت جيوش المسلمين تنعم بأمن أو استقرار فى الشام، ومن هنا فلا مجال فيما أعتقد لتصديق الروايات التى تثير خلافا بين الخليفة وبين قائده حول الزحف على مصر، وكان عمرو يستطيع أن يقف من الخليفة العظيم هذا الموقف الذى تحاول هذه الروايات أن تثبته.

وسار عمرو مخترقا صحراء سيناء حتى وصل إلى العريش فاستولى عليها دون مقاومة تذكر.

ثم سار حتى وصل "الفرما" فحاصرها أكثر من شهر، ولعب القبط دوراً هاماً فى مساعدة المسلمين ضد الروم حتى سقطت الفرما فى يد المسلمين سنة ١٩ هـ.

معركة بلبيس:

وتقدم المسلمون إلى بلبيس، وكان بها جيش كبير للروم يقوده "أرطبون"

الذى فر من فلسطين، وقد دار قتال شديد حول بلبيس استمر حوالى شهر قضى فيه المسلمون على قوة الروم وتسلموا المدينة، ويقال إنه كان بها ابنة المقوقس حاكم مصر الذى تحدثنا عنه من قبل وهو الحاكم المصرى الذى عينه هرقل إمبراطور الروم، ولما استولى عمرو على بلبيس أكرم ابنة المقوقس وأرسلها إلى أبيها معززة مكرمة، وكانت تلك سياسة رشيدة ساعدت على تقوية العلاقات بين العرب والمصريين.

حصن بابليون :

وجاءت المعركة الكبرى عند حصن بابليون سنة ٢٠ هـ، وقد حاصره المسلمون حصاراً شديداً امتد ستة أشهر، وكانوا فى هجومهم عليه يصبحونهم ويمسونهم، فلما أبطأ الفتح أرسل عمرو إلي الخليفة يطلب مدداً فأمده عمر بأربعة آلاف رجل، وكتب الخليفة إلى عمر يقول : إنى أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل يقوم مقام ألف، وهم الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة ابن مخلد.

وتحت هذا الضغط طلب المقوقس المفاوضة وأرسل وفدا يتحدث باسمه، وكان من سياسة عمرو أن استبقى الوفد مدة يومين ليروا بأنفسهم أحوال المسلمين، ثم طلب عمرو من الوفد أن ينقلوا للمقوقس أن يختار بين ثلاثة أشياء:

١- الإسلام وبذلك يكون للمصريين ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.

٢- الجزية نظير الحماية ونظير الاستمتاع بمرافق الدولة من شرطة وقضاء وحماية.

٣- الحرب.

وعاد رسل المقوقس إليه لا بهذه الثلاثة فقط بل بوصف حب الإسلام

للمصريين قالوا : رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة، جلوسهم على التراب، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد منهم، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم.

قال المقوقس عند ذلك : لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد، ولئن لم نغتنم صلحهم وهم محصورون بالنيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا قووا على الخروج من وضعهم.

ورد المقوقس الرسالة على عمرو بن العاص بأن طلب سفراء للتفاهم عسى أن يكون فى ذلك صلاح للجميع.

وتم الصلح على دفع الجزية على جميع من فى مصر من الرجال البالغين على أن يدفعه الواحد دينارين، ولا شىء على المرأة والشيخ والصبى الذى لم يبلغ الحلم.

الإسكندرية :

لم يبق أمام المسلمين بعد ذلك إلا الإسكندرية وكانت عاصمة مصر آنذاك، وقد سار إليها المسلمون وفتحوا فى الطريق إليها ما قابلهم من حصون، وكانت الإسكندرية منيعة لأسوارها ولاتصالها بالبحر بحيث يأتى لها المدد من القسطنطينية ولذلك طالت وقفة المسلمين أمامها.

ولما أبطأ عمرو فى فتح الإسكندرية : وكانت الإسكندرية بذلك تهدد المسلمين أرسل له الخليفة كتابا شديد اللهجة يأمره بسرعة الزحف على الإسكندرية وتقديم الأبطال الذين سبق أن أرسلهم الخليفة لمساعدته، ولما تسلم عمرو كتاب أمير المؤمنين قرأه على المسلمين فعقدوا العزم على العمل بإصرار

وأمل. وقاموا بحملة قوية على الإسكندرية وتمكنوا من التسلل إلي داخل الأسوار، وأعملوا السيف فى نفوس الجنود فهرب من استطاع الهرب إلى سفنهم بالبحر، وأسر منهم عدد كبير، وفرت السفن بمن لجأ لها، وتقدم المقوقس مرة أخرى، فأجرى الصلح مع المسلمين سنة ٢١ هـ على ما يقول الواقدى على شروط أهمها:

١- الجزية كما سبق وكانت أقل كثيرا مما يدفعه المصريون للروم.

٢- حرية العبادة.

٣- أن ترحل حامية الروم، وأن يبقى مع المسلمين رهينة منهم حتى لا يهاجموا المسلمين مرة أخرى، وأصبحت مصر تابعة للخلافة الإسلامية.

العاصمة الجديدة بمصر ومسجد عمرو:

وتفرغ عمرو بذلك للإصلاحات الاجتماعية وقد خطر له أن يستبقى الإسكندرية عاصمة للمسلمين فى مصر حتى يكون فى مواجهة الروم، ولكن الخليفة كتب له ألا يجعل ماء بين الخليفة وبين تجمع المسلمين، فاتجه عمرو إلى شرق النيل وأسس العاصمة الإسلامية "الفسطاط" واختار لموقع الفسطاط مكانا مناسبا من الناحية الجغرافية والحربية والاجتماعية، ويحمى الفسطاط من الشرق جبل المقطم، فهو درعها الواقى ضد العدو وضد فيضان النيل.

كما شرع عمرو فى بناء مسجده الشهير "مسجد عمرو بن العاص" الذى لعب دورا مهما فى خدمة الإسلام ونشره وإذاعة الفكر الإسلامى.

ويسمى هذا الجامع بالجامع العتيق فهو إمام المساجد

المقريزى أن حلقات الدرس بجامع عمرو بلغت فى النصف الثانى من القرن الرابع ١١٠ حلقات يتزعمها أئمة الفقهاء والأدباء

وكان بجامع عمرو حلقات درس ووعظ للسيدات تتصدرها فى خلال العهد الفاطمى واعظة اسمها "أم الخير الحجازية" وهذا يوضح أن الجامع العتيق ظل يواصل رسالته حتى فى العهد الفاطمى بعد نشأة الأزهر

وكان بيت المال موجودا فى جامع عمرو.

الفتح العربى لمصر أعاد للشرق مكانته :

بقى أن نسجل أنه عندما دخل العرب المسلمون فى هجرتهم الكبرى إلى مصر لم يعدهم السكان الأصليون من الأجانب الغاصبين وكذلك يمكن القول إن الفتوحات الإسلامية هى عند التحقيق انقلاب اجتماعى سياسى استرد به الشرق الأدنى مجده السامى الغابر، فقد جاء الإسلام مهيبا بالشرق إلى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحته فيها سطوة الغريب، فاستطاع الشرق بالإسلام أن يسترجع ماضيه المجيد لا فى ميدان السياسة فحسب بل فى ميدان الثقافة أيضا حيث تسنى له أن يعيد سيادته الفكرية.

نصوص من البردى تصف الفتح الإسلامى لمصر:

ونصوص البردى المعاصرة لعهد الفتح تظهر لنا أن الفاتحين المسلمين لم يكونوا غزاة مغامرين، وإنما كانوا يحملون حضارة، كما كانوا محاربين منظمين أقوياء يحملون أسلحة من الحديد والرصاص، ويقاتلون من قاومهم فقط، ويظهرون فى الحرب بسالة هائلة فى سبيل عقيدة اعتنقوها بإخلاص وقد تحررت مصر بهم من الضغط البيزنطى، ورحبت بأبناء الصحراء الذين نادوا بحرية العقيدة كما تشهد بذلك وثائق البردى.

وتشهد نصوص أخرى من عصر الفتح أن المسلمين الفاتحين حموا دماء المصريين وأملاكهم واحترموا شخصية البلد العريقة النابعة من الحضارة القديمة، ولم ينزع عمرو بن العاص شيئا قط من أملاك الكنيسة.

جيش متحضر:

وكان جيش عمرو به عدد من الصحابة الأجلاء ورأى هؤلاء رسوما بالمعابد لأشخاص وحيوانات كما رأوا تماثيل كثيرة، والذى لا شك فيه أن هؤلاء الصحابة لم يطمسوا هذه الصور ولا حطموا هذه التماثيل، فلم تكن معبودات كأصنام العرب فى الجاهلية، وإنما كانت من الفنون التى تسجل تاريخ البلاد وذاكرة الأمة وهذا يدل على حضارة العرب الفاتحين.

التدفق العربى لمصر:

بعد نجاح الجيش الفاتح واستقرار الأمر للعرب المسلمين بمصر تدفق العرب إلى مصر وبخاصة من عرب الجنوب، ومن قبيلة قيس.

انتشار الإسلام بمصر:

إن انتشار الإسلام بمصر يرتبط بسماحة الإسلام من جانب أو بما كانت تعانيه مصر من الاحتلال الرومانى من جانب آخر، وبناء على ما ذكره المؤرخ المسيحى "حنا النقيوسى".

دخل عدد من المصريين بينهم بعض رهبان دير سيناء دين الإسلام قبل أن يتم الفتح الإسلامى لمصر.

وعقب الفتح حدث نزاع بين أهالى قرية من قرى البحيرة وبين المسلمين، وقامت معركة انتصر فيها المسلمون، وأرسل والى مصر عددا من أهل القرية أسرى إلى المدينة المنورة وهناك سرعان ما أطلقهم الخليفة عمر وأكرمهم وكتب لوالى مصر يقول : إن الصراع ليس ضد المصريين بل ضد الرومان، وكان ذلك الحادث سببا فى انتشار الإسلام فى هذه القرية وبين كل الذين استمعوا لهذه الحادثة.

وظهر للمصريين الفرق الواسع بين المسلمين والرومان فى العلاقات السياسية، والاقتصادية فجذبهم ذلك إلى الإسلام.

وكثر الاختلاط بين العرب والمصريين، وقد تسبب عن هذا الاختلاط أن تعرف المصريون على أخلاق الإسلام فأعلن الكثير منهم دخول الإسلام، ومثل هذا الاختلاط حدث فى المدن فقد سكن بعض المسلمين في الدور التى أخلاها الرومان وبخاصة فى دمياط ورشيد، وأتاح الاختلاط فرصة للدعوة للإسلام فاعتنقه الكثيرون من الجيران.

وكان الجيش العربى يشمل كثيرا من الفقهاء والعلماء الدارسين، ولما تم النصر للعرب أخلى السيف المجال للفكر، فبدأت الدعوة الإسلامية تنساب وتتوسع وتوالى دخول الناس فى الإسلام.

وجذبت مياه النيل عدداً كبيراً من عرب الجزيرة العربية فوفدوا لمصر واستوطنوها وسرعان ما نشروا الإسلام.

ثم جاءت هجرة واسعة أيام ولاية عبيد الله بن الحجاب فى خلافة هشام بن عبد الملك، وسكن هؤلاء بلبيس، وقد عاشت اللهجة العربية بين أهالى بلبيس حتى استمعنا لها فى العصر الحاضر.

وهناك وظائف جذابة لا يشغلها إلا المسلمون، وهذا دفع عدداً كبيراً من المصريين ليدخلوا الإسلام لينالوا هذه الوظائف.

وعندما سقطت الدولة الأموية ذاب جيشها لأتباعها الذين كانوا بمصر واندمجوا بالمصريين وسرعان ما انتشر الإسلام بين جيرانهم وحدث مثل هذا فى عهد المعتصم العباسى عندما أسقط العرب ديوان العطاء فدخل هؤلاء فى غمار الناس ونشروا الإسلام.

ويتجه Butler إلى أن ضريبة الجزية على غير المسلمين دفعت بعض الأقباط أن يدخلوا الإسلام ليتخلصوا من دفع الجزية.

ولكن هذا الأمر مردود لأن من يدخل الإسلام سيلتزم بدفع الزكاة، وهى أكثر من الجزية ولا يعفى منها الأغنياء من النساء والأطفال بخلاف الجزية التى لا تجب على المرأة أو الطفل أو الشيخ.

انتشار اللغة العربية بمصر:

وفى مجال نشر اللغة العربية بمصر وسوريا نجد العرب يمرون بخطوتين مهمتين، ففى الخطوة الأولى عملوا على إحياء اللغات المحلية : الآرامية بسوريا والقبطية بمصر، وذلك ليتم لهم القضاء على اليونانية التى تخلفت عن البطالمة واللاتينية لغة الرومان، وسرعان ما تم لهم ذلك إذ رحب بهم السكان الأصليون. ثم جاءت اللغة العربية بعد ذلك.

ثم تأتى نقطة أخرى نشرت اللغة العربية على نطاق واسع، وتلك هى نقطة تعريب الدواوين فى عهد الوليد بن عبد الملك. فقد أصبح لزاما أن تتم الحسابات والمكاتبات باللغة العربية وكان على طلاب الوظائف فى الدواوين أن يجيدوا هذه اللغة، وسرعان ما وجدت طوائف لا تعرف غير اللغة العربية حتى من غير المسلمين.

ومما ساعد على انتشار اللغة العربية بمصر سعة هذا اللسان وسلامته، فقد هضم ألفاظا من الفارسية والرومانية والسريانية والعبرية والقبطية وتخلى عن ألفاظ كانت شائعة في عصر الجاهلية، وأصبحت اللغة العربية لغة العلم والأدب بمصر.

وكمل النصر للغة العربية عندما نزح كثير من العرب الرحل إلى مصر من البادية وانخرطوا فى حياة الاستقرار بالمدن الغنية المفتوحة، وبشيوع اللغة

العربية بين السكان الأصليين اضطر رجال الكنيسة فى القرن العاشر أن يضعوا عظاتهم باللغة العربية حتى يفهمها أتباعهم.

المدرسة الإسلامية المبكرة:

جذبت مصر إلي رُباها مجموعة من المحدثين والفقهاء الأفذاذ وأنجبت مصر مجموعة لا تقل عن الوافدين موهبة وكفاءة ومن هؤلاء وأولئك وتكونت بمصر مدرسة للدراسات الإسلامية ضارعت المدارس الأخرى فى مختلف العواصم الإسلامية، وكان على رأس هذه المدرسة عبدالله بن عمرو بن العاص، ويجئ بعده فقيه مصر وشيخها يزيد بن حبيب (سنة ٢٨هـ) وعبدالله بن لهيف (سنة ٦٤هـ) ثم الليث بن سعد الذى وصل القمة بين الفقهاء والمحدثين وكان نبيلاًشجاعاً.

ومن علماء مصر سعيد بن عبدالله بن أسعد المعافرى (١٧٣) وعبدالرحمن بن القاسم بن قتادة(٩١هـ) وعبدالله بن عبد الحكم (١١٥هـ) وأبناء عبدالحكم وعبدالرحمن الذي خلف لنا كتابه القيم "فتوح مصر".

ويعتبر الإمام الشافعى (٢٠٤هـ) مصرياً إذ وفد لمصر سنة ١٩٨هـ حيث كتب مذهبه الجديد وهو صاحب كتاب الأم والرسالة وانتشر مذهبه بين المصريين ومات فى مصر سنة ٢٠٤هـ وله ضريح عظيم بالقاهرة وترك الشافعى بمصر تلاميذ أجلاء كالبطبوطى والخزاعى والأزدى.

وبرزت مصر بوجه خاص فى علم القراءات، ومن علماء مصر المشهورين فى مجال المجال عثمان بن سعيد (ورش) الذى ينحدر من أصل قبطى، والذى انتهت إليه رياسة القراء بمصر وتوفى فى سنة ١٩٧هـ ومنهم كذلك أبو يعقوب يوسف بن عمرو المصرى الذى خلف ورشا فى علم القراءات وقد توفى سنة ٢٤٠هـ.

ومن علماء التاريخ والأخبار عبدالله بن هشام مؤلف سيرة بن هشام الشهيرة (٢١٨هـ) وهو عراقى الأصل ولد بالبصرة ثم هاجر لمصر عندما سمع عن مدرستها العلمية وظل بها حتى مات ومنهم كذلك سرح الغول الذى كان إماما فى العربية وعلوم الدين، وكان معاصرا للشافعى وكان الشافعى يعجب بفصاحته.

ومن شيوخ التصرف المصريين الذين ذاع صيتهم ثوبان الشهير بذى النون المصرى.

شئون الاقتصاد:

ونشطت التجارة بسبب موقع مصر على خريطة العالم، فاتصلت مصر بعدة أقطار قريبة وبعيدة، وكان يقال عن مصر إنها فرصة العالم لصلتها بالسويس ومن السويس تتصل بالحرمين الشريفين وجدة وعمان والهند والصين، وعن طريق تنيس ودمياط تنتقل التجارة إلي الروم وبلاد الفرنجة وسائر سواحل الشام، ومن جهة الإسكندرية تصل التجارة إلى أقريطش وصقلية والمغرب كله.

الدولة الفاطمية والأزهر الشريف :

إذا وصلنا فى حديثنا إلى الدول التى استقلت فى مصر فإن الدولة الفاطمية تقف على قمتها ونمر مرورا سريعا بمجالس الدعوة ودروس العصر وعلماء الفلك والصيدلة والطب الذين ظهروا فى هذا العهد لنصل إلي الأزهر الشريف الذى لعب حتى الآن دوراً كبيراً فى خدمة الإسلام والمسلمين أكثر من ألف عام.

وكان الأزهر الشريف فى أكثر تاريخه يهيئ لطلاب العلم كل وسائل الراحة فما أن يصل الطالب إلى الأزهر من أية بقعة من بقاع الأرض حتى يجد أن مشكلاته قد حلت، والرواق يضمن له السكنى والجراية تضمن له الطعام،

والحلقات العلمية مفتوحة ليختار منها ما يناسبه، وكثرت الأوقاف على الأزهر لتغطى كل هذه التكاليف.

ولم يكتف الأزهر برعاية من يفدون إليه بل أرسل أعداداً كبيرة عبر تاريخه الطويل إلي الأقطار المختلفة يحملون رسالة الإسلام وينشرون الهدى والنور فى مختلف النواحى، وكم من فقير فتح الأزهر له باب العلم فتألق واستفاد وأفاد، وما كان بدون الأزهر يستطيع أن يحقق أملا أو يمهد طريقاً للمعرفة.

وقد امتد ملك الفاطميين فى فترات إزدهارهم من نهر العاصى بالشام حتى حدود مراكش ومن منطقة الخرطوم إلي آسيا الصغرى.

الحروب الصليبية بمصر:

وإذا تركنا الدولة الفاطمية ووصلنا إلي الأيوبيين الذين خلفوها فإننا نجد أنفسنا في مواجهة خطر هدد العالم الإسلامى وهو خطر الصليبيين، ومن أهم المواقع الحربية ضد الصليبيين لابد أن نشير إشارة سريعة إلي موقعة حطين فى يوليو ١١٨٧م تلك الموقعة التى جعلت اسم صلاح الدين الأيوبى يبعث فى نفوس الصليبيين الرعب، حتى لم يعد عيبا أن يفر أحد منه.

وبعد موقعة حطين استولى صلاح الدين الأيوبى على عكا وقيسارية وحيفا وصيدا، ثم تم تحرير بيت المقدس بعد استسلام من فيه، ولم تحصل مجازر بعد الاستسلام كتلك التى حدثت عندما استولى الصليبيون على بيت المقدس، إذ كانت دماء المسلمين واليهود والمسيحيين الأرثوذكس تجرى فى الشوارع.

المماليك وعين جالوت:

وبعد الأيوبيين جاء عهد المماليك بمصر، ومن أبرز مواقف هذا العهد، موقف مصر من التتار فى موقعة عين جالوت، وقد حدثت هذه الموقعة فى مكان

قريب من نابلس فى ١٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ، وذلك بعد تدمير المغول للعراق وحرق الكتب الإسلامية وقتل الملايين مما جعل ماء دجلة يغلب عليه اللون الأحمر، وقد ثار المصريون لهذا العدوان فقابلوا جيش المغو ل بعزيمة جبارة حتى هزموه هزيمة كاملة، وسقط الجيش كله بين قتيل وأسير وجريح، وقبض المصريون على "كيتو بوقا" قائده وقتلوه، وقد تكرر انتصار المصريين على المغول فى معارك أخرى فى حمص ودمشق وقيسارية، وأدرك المغول أنه لا أمل فى الانتصار على مصر وعللوا ذلك بأن المصريين معهم سيف الرسول محمد ﷺ ومن يمتلك هذا السيف لا يهزم.

انتشار الإسلام بين المغول :

يقول سير توماس أرنولد فى كتابه Prdaching Of Islam لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من خطوب وويلات خطباً أعنف قسوة من غزوات المغول، فقد قضت الجيوش المغولية على العواصم، الإسلامية وقضت على ما بها من مدنية وحضارة، ولكن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته فظهر من بين الأطلال وحقق الانتصار على المغول، واستطاع الدعاة المسلمون أن يجذبوا إليه هؤلاء الفاتحين البرابرة وأصبح أقسى أعداء الإسلام من أقوى الدعاة.

ويمتاز عصر المماليك بكثير من الآثار والمساجد الفاخرة، كما يمتاز بإزدهار العلوم والمعارف وظهور عدد كبير من فحول العلماء مثل : ابن أبي أصيبعة، وابن خلكان، والكندى، وابن النفيس، وابن تيمية، وأبى الفداء والسبكى، وابن خلدون، وابن دقماق، والقلقشندى، وكثيرين سواهم، بل ظهر بين المماليك عدد تنازلوا عن ألقابهم العسكرية وامتيازاتهم السياسية، وانشغلوا بالفكر وبرعوا فى العلوم والمعارف والآداب كأبى الفدا المؤرخ، والأمير علم الدين قشتمر، والسلطان قنصوة الغورى.

مصر والحضارة الإسلامية:

نالت بغداد كثيراً من عناية الخلفاء العباسيين، ولكنها بدأت تضعف ابتداء من أواخر عهد المماليك والبويهيين، وفى هذا الوقت كانت مصر تأخذ الزمام بسبب استقلالها عن بغداد ومنافستها لها أحياناً.

وعندما نتصور ضرب الصليبيين لسوريا قلب العالم الإسلامى وضرب المغول لفارس والعراق فى الجناح الشرقى وضرب الفرنجة للجناح الغربى المتمثل فى الأندلس والشمال الإفريقى، عندما نتصور هذا ندرك أن كثيراً من العلماء فروا أمام هذا الزحف الصاخب ولم يجد هؤلاء ولا أولئك ملجأ لهم إلا مصر، فتلقت الفارين من سوريا قلب العالم الإسلامى، ومن الجناح الشرقى، والجناح الغربى، وأسماء هؤلاء مسجلة عندنا وهى قوائم طويلة تدل على أن مصر أصبحت ملجأ الفكر، وملاذ الثقافة.

وعندما نقفز إلى العصر الحديث نجد أن مصر سبقت العالم العربى بالاستقلال عن الدولة العثمانية بحوالى قرن ونصف قرن، فتخلصت بذلك من ظلام العهد العثمانى وتخلفه.

وبدأت مصر ترعى العلم والثقافة الإسلامية فأنشأت بجانب الأزهر الشريف عددا من الجامعات والمدارس العسكرية العليا، وعندما تحقق للدول العربية استقلالها عن ظلام العثمانيين، تقدمت مصر فأمدت هذه الدول بالأساتذة والعلماء والكتب وقبلت عدداً كبيرا من أبناء هذه الدول ليتعلموا فى مصر.

وهكذا قامت مصر بخدمة الإسلام والمسلمين فى كل العصور.

* * *

على هامش الفتح الإسلامى لمصر

كان العرب فى جاهليتهم يعرفون مصر وكانت تزورها صيفا قوافلهم التجارية المنطلقة من دار الندوة نحو بصرة وإيلات وغيرهما من البلاد السورية والفلسطينية فيغشون أسواقها ويشاهدون آثارها ويتبادلون وإياها البضائع والسلع، وقد اتسعت هذه المعرفة وتعددت مجالاتها على يد علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى المنتشرين فى بلاد العرب والذين كان العرب يطمئنون إليهم ويثقون فى علمهم.

وكانت أسفار العهدين القديم والجديد تحتوى الكثير من أخبار مصر وأحداثها وأسر الفراعنة الذين حكموها من أهلها، والملوك الذين بسطوا سلطانهم عليها من غيرهم فكان هؤلاء العلماء يحكون للعرب ما تتضمنه هذه الأسفار عن مصر وكيف أنها كانت مهد الحضارة ومنشأ المدنية وصاحبة الحول والطول على غيرها من الأمم والشعوب التى كانت تشاركها الحياة على ظهر هذا الكوكب وأنه ما من شعب من هذه الشعوب كانت له حضارة فيما بعد إلا وبصمات مصر واضحة على كل جانب من جوانبها ونورها سار فى كل ناحية من نواحيها.

وقد كانت العلائق على مايرام بين مصر والجزيرة العربية وسكان كل منهما فى سالف الدهر، فإبراهيم لما قحطت بلاده وضربها الجوع والجفاف قصد مصر فأقام فيها زمانا ولما تغير الحال فى بلاده وأراد الرجوع إليها أهداه ملكها بقرا وعبيدا وزوجة من إحدى بنات البيوتات الكبيرة وهى هاجر أو آجر فأنجب منها بِكْره، وأحب أهله إليه إسماعيل أبو العرب المستعربة، وشارك ابنه الوحيد فى بناء المسجد الحرام.

ومعنى هذا أن العرب كانوا أصهار المصريين وأخوالهم غير أن الفرصة

لم تتح لإسماعيل زيارة مصر والإقامة بين أصهاره فيها، بينما أتاحت ذلك ليعقوب حفيد إبراهيم وذلك على يد يوسف الصديق - عليه السلام - الذي ساقته المقادير إليها غلاماً حدثاً ومشت الظروف فى جانبه حتى صار عزيزا لها وصاحب اليد المطلقة فى تدبيرها وإدارة شئونها، فإنه بعدما تم الصلح بينه وبين إخوته عهد إليهم أن يأتوه بأهله وعلى رأسهم أبوه يعقوب.

وخرج - عليه السلام - فاستقبلهم جميعا على أبواب مصر فدخلوها وطابت لهم الإقامة فى مغانيها آمنين وادعين حتى مات يوسف وضم جثمانه الشريف ثرى مصر الطاهر.

وراح بنو يعقوب يتناسلون حتى كثرت أعدادهم وصاروا يحصون بالألوف بعد أن كانوا يحصون بالعشرات أو بالمئات على الأكثر مما جعل الفراعنة يخافونهم ويتوقعون الانتقام منهم، فاقترح الكهنة على فرعون أن يقتل أبناءهم ويستحيى نساءهم فتم ذلك على الفور، فكانت النتيجة أن قل الرجال الذين كانوا يعتمدون عليهم فى بناء عمائرهم وإقامة قلاعهم، فخففوا عنهم هذا العذاب وجعلوه عاما بعد عام، ثم تغاضوا عنه حتى بعث موسى وأخوه هارون وراحا يطلبان من فرعون أن يرسل معهما بنى إسرائيل.

واستشرى الخلاف بينه وبينهما فعاد إلي تقتيل أبناء بنى إسرائيل واستحياء نسائهم من جديد إلي أن انتهز النبيان الكريمان انشغال المصريين فى عيد لهم فأخذا بنى إسرائيل ووليا وجههما شطر سيناء، وأصبح فرعون فلم يجد القوم فتبعهم هو وجنوده فضرب موسى البحر بعصاه فانفلق فجازه بنو إسرائيل، وانطبق على فرعون وجنوده فكانوا طعاما له ما خلا فرعون فإن البحر قذفه خارجه ليكون عظة لمن يتعظ وعبرة لمن يعتبر.

وجاء الإسلام فاتسعت معرفة العرب لمصر وتعددت جوانبها، وصاروا

يعلمو ن من أخبارها وأحداثها ما كانوا يجهلونه، والذى يقرأ الكتاب والسنة يرى هذا واضحا لا خفاء فيه، فقد جاء لفظ مصر فى القرآن فى آيات كثيرة منها قوله تعالى على لسان فرعون :

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) ﴾ [الزخرف].

وقوله على لسان يوسف لأبيه وإخوته :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يوسف].

وقوله تعالى مخاطبا موسى وأخاه هارون :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾ [يونس].

وهذه الآيات كما ترى جاءت فيها لفظة مصر صراحة ومن غير تأويل.

ومن الآيات التى جاءت مؤولة قوله تعالى على لسان موسى مخاطبا بنى إسرائيل :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) ﴾ [البقرة].

فإن المفسرين مختلفون فى المراد من مصر هنا، فبعضهم يرى أنها مصر الفرعونية وبعضهم يرى أنها مجرد مدينة أو قرية كبيرة.

ومنها قوله على لسان موسى مخاطبا بنى إسرائيل :

﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾ [الأعراف].

وقوله على لسان يوسف مخاطبا ملك مصر:

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾ [يوسف].

وقوله فى شأن هذا النبى نفسه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾ [يوسف].

فالأرض فى هذه الآيات الأربع هى مصر الفراعنة من غير خلاف بين المفسرين.

وجملة القول إن مصر ذكرت فى القرآن إحدى وعشرون مرة. بعضها على سبيل التصريح وبعضها على سبيل التلميح ومن العلماء من ذكر أن الأرض جاءت فى القرآن ومعناها مصر عشر مرات، وقالوا فى تعليل ذلك إنها كانت صاحبة السيادة والرياسة على الجانب المعمور من الأرض آنذاك، وعلة أخرى وهى أن خيراتها كانت تكفى أهلها من غير حاجة إلى ما حولها من البلاد حتى إنها لو أحيطت بسور فاصل لها عن غيرها لعاش أهلها حياة راقية ورغدة.

هذا هو بعض ما جاء عنها فى الكتاب، أما السنة فإنها تناولت هى

الأخرى مصر فى أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ : «إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصرا فاستوصوا بقبطها خيرا. فإن لهم منكم صهرا وذمة».

وقوله : « الله الله فى قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم. ويكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله».

وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « استوصوا بالقبط خيرا فإنكم ستجدون نعم العون على قتال العدو».

وواضح من هذه الأحاديث الثلاثة أنها تبشر بفتح مصر وتوصى الفاتحين لها بإكرام القبط. وتشير إلي أن بعضهم سيدخلون فى دينهم وأنهم سينتصرون له ويسهمون فى نشره ويكونون شجنا فى حلق خصومه وصدر أعدائه. وتبين فى جلاء وصراحة أن الوشائج التى تصل بين العرب والأقباط أوثق وأشد من التى تصل بينهم وبين غيرهم من الأمم والشعوب.

فهم أى القبط أخوال العرب وأصهارهم، أما أنهم أخوالهم فلأن النبى – عليه الصلاة والسلام– قد تزوج بواحدة منهم وهى مارية وأنجب منها ولده إبراهيم الذى لم يحزن على ولد من أولاده عند وفاته ما حزن عليه ساعة اختيار الله له لجواره.

وأما أنهم أصهاره فلأن هاجر أو آجر أم إسماعيل وزوج إبراهيم واحدة منهم، وكانت قبل مجيئها إلى بلاد العرب تسكن قرية أمام الفرما من مصر يقال لها أم العرب، وهذا هو السر فى أن النبى ﷺ لم يوص أصحابه بأية أمة مثلما أوصاهم بالقبط. والفرما هى مدينة ببورسعيد.

ويبدو لى أن هذا الشعور كان متبادلا بين العرب والقبط، والذي يطالع استقبال المقوقس لكتاب النبى ﷺ ورسوله دحية إليه يتبين له مدى المودة والمحبة التى كانت تربط بينهما.

فقد وضع هذا الكتاب على صدره وبالغ في إكرام حامله وأكد له أن الذي أرسله هو رسول من رب العالمين وأنه سيملك أرضه والمكان الذى عليه مجلسه.

وأهدى إليه مارية وسيرين وعبداً خصياً وفرساً وبغلاً وحماراً وعسلاً وكأساً من زجاج. وأرسل معه رسولاً ليرى النبى ﷺ ويتأكد من وجود خاتم النبوة بين كتفيه - صلوات الله وسلامه عليه - وبعث مع حامل الكتاب من يحرسه حتى يبلغ مأمنه ومعه عدد من القباطى وهى ثياب بيض كانت تكسى بها الكعبة، وقد كفن النبى ﷺ فى واحدة منها.

ولم يرو أن ملكاً أو حاكماً من الذين كتب النبى ﷺ إليهم قد أهدى إليه كما أهدى المقوقس، ولا احتفى برسوله كما احتفى به، وما ذاك فيما أرى إلا للرحم الماسة التى بين العرب والقبط.

وندع الكتاب والسنة إلى حين ونولى وجوهنا نحو التاريخ.

فقد أفاض فى ذكر مزايا مصر ومناقبها، فذكر أن أنبياء كثيرين زاروا مصرا وأقاموا فيها، منهم يعقوب ويوسف وإخوته الأحد عشر، وذكر أن من الأنبياء من ولد على ثراها ومنهم موسى وهارون وهذان لا خلاف فيهما، وإنما الخلاف حول نبى الله عيسى.

فمن الناس من قال إنه ولد فى إحدى قرى صعيد مصر وهى قرية أهناس، وأن النخلة التى جاء ذكرها فى القرآن كانت فيها، ومنهم من قال إنه زارها هو وأمه وحسب .

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون]

وفى التاريخ أن عددا من الأنبياء أثنوا على مصر ودعوا لها ومنهم آدم - عليه السلام - وقد جاء فى دعائه قوله :

يا أرض مصر فيك الخبايا والكنوز	ولـــك البـــر والثـــروة
وســـال نـهـــرك عســـلا	كثر اللـــه زرعـك ودر ضرعـك
وزكـــى نبـاتـــك	وعظمـت بركتـك وخصبـت

ودعا لها نوح بادئا بحفيده الذى سكنها، وأقام هو وولده فيها وهو مصريم بن بنصر بن حام. فقال :

اللهـم إنـه قـد أجـاب دعـوتـى	فبـارك فيـه وفـى ذريتـه
واسكنـه الأرض المبـاركـة	التى هى أم البلاد وغوث العباد
التى نهرها أفضل أنهار الدنيا	واجعـل فيها أفضـل البركـات
وسـخـر لـه ولولـده الأرض	وذللهـا لهم وقوِّهـم عليهـا

ومهما ينسى التاريخ فلا ينسى أول من خط بالقلم ورفع راية التوحيد وهو إدريس النبى -عليه السلام- فقد ولد فى مصر وعاش على أرضها حتى رفعه الله تعالى إلى السماء الرابعة.

وقد جاء فى القرآن الكريم عنه قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) ﴾ [مريم].

ويقول المؤرخون إنه أدرك آدم وقضى من عمره فى حياته ثلاث مائة سنة. والرواية ممكنة عقلا وغير مستحيلة نقلا وإن كانت بعيدة عادة.

وجملة القول إن مصر قد استقبلت عددا كبيرا من الأنبياء والرسل منهم

من ولد فيها ومنهم من أقام على ثراها ومنهم من زارها زيارة سريعة وخاطفة وقد سبق وأن ذكرنا طائفة من كل فريق من هؤلاء.

ونعود إلي مصر ونتساءل ما هى الأسباب التى جعلت العرب يتطلعون إلى فتحها وبسط هيمنتهم على أراضيها وقد كانوا أمة ضعيفة الحول والطول، إذا هى قورنت بالأمة الفارسية أو الأمة الرومانية اللتين بسطتا سلطانهما عليها حيناً من الدهر؟

والجواب :

إن لذلك أسبابا كثيرة منها أن النبى ﷺ هو الذي غرس فى قلوبهم هذا الأمل وسهل عليهم أمر تحقيقه وهو الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ولا يقول فى الغيب إلا ما يظهره عليه ربه. وقد سبق وأن أوردنا فى فتح هذا البلد أحاديث ثلاثة تؤكد أن هذا الفتح كائن لا محالة وأن هذه الأحاديث ليست إلا قليلا من كثير مما صح عنه صلوات الله وسلامه عليه.

ومنها أن العرب قهروا الجيوش الرومانية فى كل من الشام وفلسطين واضطروا هرقل إلى مغادرة هذه البلاد بعدما تأكد من أن بقاءه فيها قد أصبح ضربا من المستحيل فتركها وهو يقول فى أسى ومرارة :

سلام عليك يا سوريا   سلام لا لقاء بعده

وهرقل هذا هو قيصر الروم وصاحب الحول والطول فى دولتهم ولأن جيوشه المهزومة قد ولت أدبارها إلى مصر فإن غزوها بات أمراً يتطلبه الحفاظ على البلاد التى فتحها العرب،

وفى الوقت نفسه بات فتح مصر أسهل إمكانية وأقل مؤنة مما كانت عليه من قبل فقد جرب العرب الجنود الرومانية وبلوا بأسها وقوتها وتأكد لهم أن هؤلاء الجنود لا قدرة لهم على الحرب ولا صبر لهم على أهوالها، وأنهم فى

خوفهم منهم وفزعهم عند لقائهم أشبه ما يكونون بالنعاج إذا أطبقت عليها الذئاب.

وسبب ثالث لا سبيل إلي إغفاله ولا إلى غض الطرف عنه وهو أن الروم قد أساءوا حكم القبط وأرهقوهم العسر من أمرهم، ولم يكن ذلك من جانب في الحياة دون جانب ولا من ناحية في العيش دون ناحية.

فقد اضطهدوهم في العقيدة واضطهدوهم في الضرائب والمكوث حتى إن الفلاحين كانوايهربون من أراضيهم فرارا من الجبايات التى كانت تفرض عليهم وتصادر من أجلها مواشيهم وأمتعتهم، ومثل هؤلاء لا يمكن أن يظاهروا الروم على أعدائهم ويضعوا أيديهم فى أيديهم إذا غزاهم غاز إلا مضطرين.

فإذا سنحت لهم سانحة أو واتتهم فرصة لا يترددون فى انتهازها رفعا للنير عنهم وأخذا بثأرهم ممن ظلمهم وبغى عليهم، وهذا هو ما كان وهو ما أشار إليه النبى ﷺ فإن القبط ما كادوا يرون جنود الإسلام على ثرى بلادهم، وكانوا يعرفون مما بلغهم عنهم أنهم أصحاب عدل ورحمة حتى ظاهروهم على الروم وعاونوهم فى كسرهم ودحرهم.

والذى يمعن النظر فيما سبق يتبين له أن فتح مصر قد بات واجبا لا سبيل إلى تأخيره ولا إلى التريث فى أدائه، فإن ترك الجيوش الرومانية المنهزمة وعدم تعقبها حتى القضاء عليها يعطيها الفرصة فى لم شتاتها ومداواة جراحها وتعويض ما نقص عنها من الكراع والسلاح والوثوب على فلسطين وسوريا لاستعادتهما، وتلك كارثة لو أنها وقعت لذهبت جهود المسلمين في فتح هذه البلاد أدراج الرياح، وإذن فإن مهمة الفتح قد كانت أمرا تم الاتفاق عليه بين الفاروق - رضى الله عنه - ورفاقه من أصحاب النبى ﷺ فى الاجتماع الذى تم فى الجابية بعد فتح سوريا وفلسطين وتولى الجنود الرومانية صوب مصر،

واختيار عمرو بن العاص - رضى الله عنه - لقيادة الجند الذين وكل إليهم أمر الغزو وقد كان لأمور كثيرة : أولها أنه زار مصر فى الجاهلية والإسلام، فهو يعرفها ويعرف الكثير من رجالات القبط والروم فيها .

وثانيها أنه هو الذى هزم الأرطبون قائد الروم وشتت شمل قواته حتى أن الفاروق -رضى الله عنه- لما اختار عمرو لقتاله فى فلسطين قال كلمته المأثورة: رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فلننظر عما تنفرج.

وثالثها أن عمرا كان يعتبر أحد دهاة العرب الأربعة وأذكيائهم. وكان يقول ما دخلت فى أمر إلا وأنا أعرف كيف أخرج منه. فكفاءة ابن العاص وحسن قيادته من الأمور التى لا يشك فيها شاك ولا يعترض عليها معترض.

وحيث إن فتح مصر قد كان أمرا اتفق عليه واتفق كذلك على الرجل الذى سيحمل على عاتقه هذه المهمة. فإن ما جاء فى المواعظ والاعتبار للمقريزى من أن الفاروق - رضى الله عنه - أخبر عمرا أنه مرسل إليه كتابا فإن أدركه قبل دخوله أرض مصر فليعد من حيث أتى، وإن أدركه بعد دخولها فليمض على بركة الله، وإن عمرا قد أدركه هذا الكتاب وهو مايزال فى فلسطين فلم يقرأ الكتاب إلا بعد أن تأكد من أنه فى أرض مصر.

كلام لا سبيل إلى تصديقه وذلك لأسباب :

أولها ماسبق وأن ذكرناه من أن فتح مصر قد كان واجبا لا سبيل إلى إرجائه ولا إلى التمهل فى أدائه.

وثانيها ما ذكرناه كذلك من أن الاتفاق قد تم على هذا الفتح وعلى الرجل الذى سيحمل أمانته.

وثالثها أن الفاروق لو لم يكن على قناعة من فتح مصر لرفض المضى فيه إذا طلب منه، من غير حاجة إلى الكتاب الذى سبق الحديث عنه.

ورابعها أن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - ما كان ليخدع الفاروق أو يغرر به وهو على يقين من أن فتح مصر ليس أمرا سهلا وإنما هو فى حاجة إلي عدد وعدة ولا سبيل إلى الحصول عليها إلا من الفاروق - رضى الله عنه -. وعلى هذا الأساس فإن هذا الكتاب من الأساطير التى لا يؤيدها عقل ولا نقل.

أما العقل فللمحاذير التى سبق وأمطنا النقاب عنها.

وأما النقل فلأن الطبرى لم يذكره ولا أشار إليه وهو أقدم وأصدق المصادر التى تناولت العصرين الخلافى والأموى.

وقد نسج على منواله فى شأن الكتاب الآنف الذكر ابن الأثير فى تاريخه، والحافظ بن كثير فى البداية والنهاية، وذكره المقريزى فى المواعظ والاعتبار وهو آخر هذه المصادر وأحدثها.

وقد يقول قائل إن الفاروق - رضى الله عنه - كان يكره التوسع فى الفتح خوفا من أن يعجز عن حماية ما فتح فيسقط فى يد العدو وتضيع الجهود والدماء التى بذلت فيه.

وكان الرجال أغلى عنده من كل ما فى هذه الدنيا. ولهذا كان يأمر العسكريين من عماله ألا يجعلوا بينه وبين المسلمين بحرا ولا جبلا ولا حاجزا ما يعوق سيره إليهم إذا نادوه، أو يؤخر خطوة نحوهم إذا استغاثوا به.

والجواب :

إن المضطر يركب الصعب كما يقول الحكماء وقد عرفت مما سبق أن الفاروق - رضى الله عنه - لم يكن له اختيار فى تعقب فلول الجند الرومانية حتى يكسر شوكتهم ويستأصل شأفتهم ويجعلهم أحاديث ويمزقهم كل ممزق وهذا هو ما فعل.

وإن كان على خلاف ما يذهب إليه عندما تتاح له فرصة الاختيار مثله فى هذا مثل من تضطره المخمصة إلي أكل الميتة والدم ولحم الخنزير، فإن الله تعالى قد أباح له ذلك حتى يبقى على قيد الحياة. ومعنى هذا أن ما يعمله الفاروق -رضي الله عنه- فى الظروف العادية شىء، وما تضطره إليه الظروف غير المواتية شىء آخر.

وحيث إن فتح مصر قد كان واجبا كما سبق وعرف.

فإن السؤال الذى يطرح نفسه الآن هو متى بدأ هذا الفتح، والجواب أن المؤرخين مختلفون فى ذلك فمنهم من يرى أن بدايته كانت فى السنة المكملة للعشرين أو السنة التى تليها، وأنها والاسكندرية قد تم فتحهما فى هذين العامين نفسيهما وفى خلافة الفاروق - رضى الله عنه - على سبيل التحديد، ومنهم من يرى أن فتح الاسكندرية قد كان فى السنة الخامسة والعشرين وفى خلافة ذى النورين عثمان - رضى الله عنه -.

ويبدو لى أن فتح مصر قد كان قبل السنة المتممة للعشرين والتى تليها والدليل على هذا أن الجفاف قد ضرب الحجاز فقحط حتى هلك الزرع والضرع، ومات الكثيرون من الناس والحيوانات وسمى العام الذى نزل فيه هذا القحط عام الرمادة.. وكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- إلي عماله مستغيثا، وكان عمرو بن العاص أحد العمال الذين كتب إليهم وكان عامله على مصر فأرسل إليه من خيرات هذا البلد من الشحم والقمح والدقيق وغيرها الكثير.

وقد اتفق المؤرخون على أن عام الرمادة هذا هو العام الثامن عشر من الهجرة ومعنى هذا أن ابن العاص كان واليا على مصر قبل هذا العام ولا يكون كذلك إلا إذا كان فتحها قد تم ولهذا فإن بعض المؤرخين يقولون إن فتح مصر

كان فى السنة السادسة عشرة للهجرة، وهذا الرأى هو الذي أميل إليه لأن عام الرمادة كان هو الثامن عشر من غير خلاف واستغاثة الفاروق بعمرو بن العاص في مصر كانت من غير خلاف كذلك.

ومن المؤرخين الذين أيدوا وجهة النظر هذه صاحب الكامل فى تاريخه وقد تسأل أيها القارئ عن فتح مصر :كان عنوة أو صلحا؟

والجواب :

إن للعلماء فى ذلك أقوال ثلاثة :

القول الأول : إنه كان عنوة وإليه ذهب عروة بن الزبير - رضى الله عنه - وطائفة من أهل العلم، وقد استدلوا على وجهة نظرهم هذه بأدلة منها ما رواه عروة نفسه عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد إلا أهل انطبلس كان لهم عهد يوفى به.

ومنها ما رواه زيد بن أسلم قال كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل عهد كان بينه وبين أحد ممن عاهده، فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد.

أضف إلى هذا وذلك دليلين أخريين :

أحدهما ما رواه بن لهيعة عن الصلت بن أبى عاصم أنه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح أن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد.

وثانيهما ما رواه عبدالله بن أبى جعفر أن كاتب حيان بن شريح حدثه أنه احتاج إلي خشب لصناعة الجزيرة، فكتب حيان إلي عمر بن العزيز يذكر ذلك له وأنه وجد خشبا عند بعض أهل الذمة وأنه كره أن يأخذها منهم حتى يعلمه، فكتب إليه عمر خذها منهم بقيمة عدل فإنى لم أجد لأهل مصرعهدا أفى لهم به.

والقول الثانى إن هذا الفتح كان صلحا وإليه ذهب جماعة من أهل الفضل والرواية ولهم على ما رأوه أدلة كثيرة منها:

ما رواه عبد الله بن أبى جعفر، قال حدثنى رجل ممن أدرك عمرو بن العاص، قال: للقبط عهد عند فلان وعهد عند فلان فسمى ثلاثة نفر.

وفى رواية عنه قال : سألت شيخا من القدماء عن فتح مصر، قلت له : فإن ناسا يذكرون أنه لم يكن لهم عهد فقال : ما يبالى ألا يصلى من قال إنه ليس لهم عهد، فقلت : فهل كان لهم كتاب؟ فقال: نعم كتب ثلاثة، كتاب عند ظلمة صاحب أخنا، وكتاب عند فرمان صاحب رشيد، وكتاب عند بعض صاحب البرلس. قلت كيف كان صلحهم؟

قال : دينارين على كل إنسان جزية وأرزاق المسلمين. قلت : فتعلم ما كان من الشروط؟ قال: نعم . ستة شروط. لا يخرجون من ديارهم ولا تنزع نساؤهم ولا كفورهم ولا أراضيهم ولا يزاد عليهم.

ومنها ما رواه يزيد بن أبى حبيب، عن أبي جمعة مولى عقبة قال: كتب عقبة بن عامر إلى معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه - يسأله أرضا يسترفق بها عند قرية عقبة، فكتب له معاوية بألف ذراع فى ألف ذراع. فقال له مولى له كان عنده : انظر - أصلحك الله - أرضا صالحة.

فقال له عقبة : ليس لنا ذلك. إن فى عهدم شروطا ستة:

لا يؤخذ من أنفسهم شيء ولا من نسائهم ولا من أولادهم ولا يزاد عليهم ويدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم.. وأنا شاهد لهم بذلك.

وقد ناقش ابن الأثير فى تاريخه ما زعمه البعض من أن فتح مصر لم يكن صلحا وإنما كان عنوة، فقال : فكان ملوك بنى أمية يقولون :

إن مصر دخلت عنوة وأهلها عبيدنا نزيد عليهم كيف شئنا ولم يكن كذلك.

يبقى القول الثالث وهو أن مصر فتحت صلحا ما عدا الإسكندرية وثلاث قرى ظاهرت الروم على المسلمين وهي (سلطيس ومصيل وبهليب).

وقد كان الزبير بن العوام - رضى الله عنه - يرى أن تقسم هذه القرى الثلاث والإسكندرية بين الفاتحين غير أن ابن العاص - رضى الله عنه - رفض هذا الرأى وأصر على الكتابة إلي الفاروق - رضى الله عنه - فيه.

وانتظر الجميع الرد منه - رضى الله عنه - فكتب يقول : أما بعد فإنه جاء فى كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن ترد عليه ما أصيب من سبايا أرضه. ولعمرى لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إليّ من فئ يقسم، ثم كأنه لم يكن، فأعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخيروا من فى أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومه.

فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فإذا لا نقدر على ردهم ولا نحب أن نصالحه على أمر لا نفى له به.

قال : فبعث عمرو إلي صاحب الإسكندرية يعلمه الذى كتب به أمير المؤمنين قال : فقال : قد فعلت. قال : فجمعنا ما فى أيدينا من السبايا واجتمعت النصارى فجعلنا نأتى بالرجل ممن فى أيدينا ثم نخيره بين الإسلام وبين النصرانية فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هى أشد من تكبيرنا حين نفتح القرية.

قال: ثم نحوزه إلينا.

وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه إليهم، ووضعنا عليه الجزية وجزعنا من ذلك جزعا شديدا حتى كأنه رجل خرج منا إليهم. قال: فكان ذلك الدأب حتى فزعنا منهم وقد أتى فيمن أتينا به بأبى مريم عبدالله بن عبدالرحمن.

قال القاسم : وقد أدركته وهو عريف بنى زيد قال : فأوقفناه فعرضنا عليه الإسلام والنصرانية وأبوه وأمه وإخوته يجاذبوننا حتى شققوا عليه ثيابه ثم هو اليوم عريفنا كما ترى. ثم فتحت لنا الإسكندرية. فدخلناها.

وواضح مما سبق أن المسلمين كان حرصهم على نشر الدين ودخول أهل مصر فيه. وليس على أعراض هذه الدنيا من الأرض والمال وغيرهما مما تصبوا إليه الأنفس ويقاتل من أجله الناس بعضهم بعضا وهذا هو السر فى الهيبة منهم والإحجام عن قتالهم والإطمئنان إلي وعودهم وإن لم تكن مكتوبة ومشهدا عليها.

وصفوة القول إن العلماء قد انقسموا فى فتح مصر:

فرقة تقول إنها فتحت صلحا وإن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - كتب لأهلها ثلاثة كتب وأودعوها لدى رؤسائها وقد سبق وسمينا هؤلاء الرؤساء.

وفرقة تقول إن مصر فتحت صلحا ماعدا الإسكندرية وثلاث قرى أخرى، وإن أمير المؤمنين عمر - رضى الله عنه - أمر فصولحت الإسكندرية والقرى الثلاث على مثل ما صلح عليه غيرها، وعلى هذا الأساس فإن مصر كلها فتحت صلحا كما رأى الفاروق - رضى الله عنه - فإن قلت والزبير بن العوام -رضى الله عنه - ماذا تم فى موقفه ؟

والجواب :

إن من المؤرخين من قال إنه أعطى من الفئ ما رضى به.

ولست أجد فى نفسى ميلا إلى هذا الرأى فما كان الزبير حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته وأحد المبشرين من أصحابه بالذى يخرج على رأى ارتآه الفاروق - رضى الله عنه - وأجمع الجند على اختياره.

يبقى مما يثار حول فتح مصر، خبر رواه يزيد بن أبى حبيب وحاصله، أن المسلمين قد توجهوا بعد إتمامهم فتح مصر إلي النوبة لفتحها فلم يتم لهم ذلك وعادوا مثقلين بالجراح وفقد الحدق. فسموا غزوتهم هذه غزوة الحدق. والسر فى هذا هو أن أهل هذه البلاد كانوا ماهرين فى الرماية، لا يخيب لهم سهم وكانوا يوجهون سهامهم إلى عين أعدائهم.

ولما ولى عبدالله بن سعد بن أبى السرح مقاليد مصر صالح أهل النوبة هؤلاء على عدد من الرؤوس يؤدونها إلي المسلمين فى كل عام.

وقد أقر عثمان - رضى الله عنه - فعله، وأقره الخلفاء من بعده ومنهم عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - نظرا لصالح المسلمين ورعاية لمنافعهم وما أشك فى شىء ما أشك فى هذا الخبر.

فإن الإسلام لم يعمل على تحقيق شىء ما عمل على تحرير الرقيق ورفع الظلم والهضم عنهم. والذى يمعن النظر فى الأبواب الكثيرة التى فتحها لإخراجهم من ذل العبودية إلى عز الحرية تتبين له هذه الحقيقة واضحة لا غموض فيها ولا خفاء. فكيف والحالة هذه يقبل عثمان - رضى الله عنه - ومن بعده من الخلفاء الاتفاقية السابقة الذكر مع أبناء النوبة وهم يعرفون جيدا أن الإسلام قد كان ومازال يجفف موارد الرق ويضيق مصادره حتى يأتى اليوم الذى يقضى عليه فيه، وقد جاء والحمد لله، فقد ألغى العالم المعاصر الرق ووقعت دوله كافة على حظره وتحريمه وعقاب من يفتح السبيل إليه.

وقد يقول قائل لقد سبق وعرفت أن كثيرا من الرسل والأنبياء قد أقاموا

فى مصر، وأن منهم من ولد فيها ومنهم من دعا لها، فهل يمكن أن أعرف بعض أعلام الصحابة الذين شاركوا فى فتحها والذين طابت لهم الإقامة على أرضها أو تحت ثراها.

والجواب:

أجل. فقد شارك فى فتح مصر الكثيرون من أصحاب النبى ﷺ منهم على سبيل المثال الزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعمرو بن العاص، وعبدالله بن عمربن الخطاب، وعبدالله بن عمرو بن العاص، والمقداد بن الأسود، وعبدالله بن سعد بن أبى السرح، وعقبة بن نافع، وهؤلاء جميعا من قريش.

وعبادة بن الصامت، ومحمد بن مسلمة، وسلمة بن مخلد، وقيس بن سعد بن عبادة، وأبو أيوب خالد بن زيد. وهؤلاء من الأنصار.

ومن الذين ماتوا فى مصر ورواهم ثراها. عمرو بن العاص وأبناه محمد وعبدالله ومولاه وردان، والسيدة زينب بنت على، وأخت الحسن والحسين، وغيرهم كثيرون ممن بزوا الأقران ومشت بذكرهم الركبان وعزفت مفاخرهم على قيثارة الزمان.

تبقى على هامش الفتح الإسلامى لمصر قضية، هلل لها الأعداء وأنكرها المنصفون من العلماء وهى قضية إحراق مكتبة الإسكندرية.

وقد تناولتها أقلام كثيرة بعضها مغرض وبعضها منصف. الأمر الذى جعل الحديث عنها مضيعة للوقت والجهد معا، فإن الذين تناولوها لم يتركوا حولها شاردة ولا واردة إلا أوسعوها بحثا ونقدا.

وحاصل هذه القضية فى اختصار.

إنه كانت على أرض الإسكندرية منذ العصر البطلمى، مكتبة حوت شتى

ألوان العلوم ومختلف أنواع الحكمة وكان مبناها على كثب من ساحل البحر وقد أصابها الحريق مرتين.

أولاهما سنة ثمان وأربعين قبل الميلاد. على إثر إحراق أسطول يوليوس قيصر.

والثانية سنة إحدى وتسعين وثلاث مائة للميلاد فى عهد القيصر تيودوسيس.

ومنذ هذا الحريق لم يعرف التاريخ من أخبارها شيئا حتى ذكرها الخطيب البغدادى فى القرن السابع الهجرى، وليس يدرى إلا الله لماذا نسيها التاريخ هذه الفترة الزمنية الطويلة، لأنها هلكت ولم يبق منها شيء.

أما أنها بقيت منها بقية غير أن المصريين لم ينتبهوا إليها لأنهم كانوا فى ظروف لا يحسدون عليها حتى الفتح الإسلامى لبلادهم. وبعد هذا الفتح انصرفت آمالهم وطموحاتهم إلي وجهات غير التى كانوا عليها ولهذا فإن الخطيب البغدادى لما أثار قضية إحراق هذه المكتبة، وعزاها إلى عمر أمير المؤمنين وعامله على مصر عمرو بن العاص، كان لكلامه دوى هائل لدى المثقفين المسلمين وغير المسلمين ولا يزال حتى هذا العصر الذى نعيش فيه. إن مكتبة الإسكندرية الآنفة الذكر لم تحرق بعد الفتح الإسلامى لمصر، لا على يد أمير المؤمنين عمر وعامله عمرو بن العاص ولا على يد غيرهما من الخلفاء والأمراء، إن هذه المكتبة لم يصبها الحرق فى التاريخ إلا مرتين للأسباب التى سبق وذكرتها آنفا ومرجع هذا إلى أسباب:

أولها: أن إحراق هذه المكتبة يتعارض وتعاليم الإسلام ومبادئه لأنه يطرى العلم ويحض على إذكائه وإحيائه، وإحراق هذه المكتبة ليس إذكاء للعلم، بل إفناء له وليس إحياء لمصادره ومراجعه، وإنما هو محو لها وقضاء عليها.

وثانيها: إن الإسلام فتح مدنا كثيرة ذات حضارات عريقة ومدنيات عظيمة فلم يصبها فى تراثها ولم يقض على كتبها ولا على علمائها.

فلماذا سلك هذا السلوك الحضارى فيها وخالفه فى مصر وحدها.

وثالثها: إن هذه المكتبة لو احترقت على يدى عمر وعمرو أثناء الفتح الإسلامى لمصر أو فور انتهائه، لأثار دويا هائلا فى مشارق العالم ومغاربها وانقسم المؤرخون حوله إلى مؤيد ومعارض، لكن الأمر كان على العكس من ذلك تماما، فلم يرو أن أحدا من المؤرخين قد خاض فيه كل كثرتهم، حتى جاء الخطيب البغدادى بعد عشرات السنين من وقوعه وأماط النقاب عنه، الأمر الذى إن دل على شىء فإنه يدل على أنه أحد أوهام هذا المؤرخ وسقطاته وإلا فليخبرنا من أين استقاه وعلى أى مؤرخ عربى أو غير عربى اعتمد فى إثباته. وقد تسأل ومن حقك أن تسأل عن الثمرة التى سيجنيها الخطيب البغدادى من تلفيق هذا الخبر الذى يسىء إلى أمير المؤمنين عمر وعامله عمرو خاصة وإلى المسلمين كافة وهو مؤرخ مسلم يجل دينه وقومه ويدفع السوء عنهما ما استطاع.

والجواب:

لعل الرجل كان يظن أن عمله هذا يرفع من شأن دينه وقومه، حيث إن ما تحتويه مكتبة الإسكندرية فى رأيه من الكتب ليس فيها غير الأفكار الفلسفية الضالة التى تصد عن سبيل الله، وإنه لا سبيل إلى الصد عنها غير إحراقها وأنت خبير بأن طائفة من أهل السنة تكفر الفلاسفة وتصد عن منهجهم وتعتبرهم أعداء يجب الحذر منهم وفى هذا يقول شاعرهم:

بسلاسة كفر الفلاسفة العدا — إذ أنكروها وهى حقا ثابتة

حشر لأجساد حدوث عوالم — بعث لأجسام وكانت ميتة

وعليه فإن الخطيب البغدادى لم يصنع ما صنعه كيدا للإسلام وأهله. وإنما استهدف الخير لهما والرفعة لمنزلتهما، فهو فى ادعائه إحراق مكتبة الإسكندرية بأمر من عمر وامتثال من عمرو مجتهد أخطأ والمجتهد إذا أخطأ له أجر واحد وإذا أصاب له أجران.

والمستحقون للوم من المؤرخين هم الذين قلدوه ولم يتدبروا فيما قاله من أمثال القفطى وأبى الفرج وغيرهما.

يبقى المؤرخون الذين ادعوا أن المسلمين قد سبق وأحرقوا مكتبة الفرس عند فتحهم لبلادهم كما يدعى حاجى خليفة، وأن عبدالله بن طاهر قد أحرق هو الآخر كتبا للمجوس.

والجواب : من وجهين :

أحدهما أن هذا إدعاء لا بينة عليه.

والثانى أن حاجى خليفة وهو صاحب الإدعاء الأول وعبد الله بن طاهر وهو المدعى عليه أنه أحرق كتب المجوس لا يبرر إحراق عمر لمكتبة الإسكندرية، لأن المسلمين ليسوا مطالبين بالامتثال لأحد منهم ملكا كان أو أميرا سوى النبى ﷺ وخلفائه الراشدين.

فقد جاء فى الحديث الصحيح قوله ﷺ : «اتبعوا سنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، عضوا عليها بالنواجز، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار».

وقد حدد صلوات الله وسلامه عليه زمن الخلافة الراشدة فقال (الخلافة بعدى ثلاثون) وهى المدة التى تولى فيها أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، فلو أن عمر - رضى الله عنه - أحرق مكتبة الإسكندرية لكان هذا العمل منه مبررا لغيره أن ينسج على منواله، ويكون ما يفعله منسوبا إلى الإسلام، وعلى العكس

من ذلك تماما ما يفعله سواه مهما كانت منزلته فإنه فى هذه الحالة يكون منسوبا إليه وليس إلى الإسلام.

وصفوة القول إن المسلمين لم يحرقوا مكتبة الإسكندرية فى عهد عمر ولا فى عهد غيره من الخلفاء الراشدين، وإن من ادعى ذلك من المؤرخين أمثال البغدادى والقفطى وأبى الفرج لا يستند إلي حجة، وإنما هو من الظن الذى نهى الله تعالى عنه فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ [الحجرات].

عودا على بدء

وبعد فإن العرب كانوا يعرفون الكثير عن مصر فى الجاهلية، وإن أوثق مصادرهم فى هذه الفترة هو ما كانوا يسمعونه من علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى، نقلا عن أسفار العهدين القديم والجديد التى تحدثت عن مصر فأطالت الحديث وحوت من أخبار فراعنتها وملوكها ما صح وما لم يصح.

وجاء الإسلام فاتسعت هذه المعرفة وتنوعت، وكان الكتاب والسنة الثابتة هما المصدران اللذان لا يأتيهما الباطل من بين يديهما ولا من خلفهما.

وقد تبين لنا من هذين المصدرين كليهما أن مصر كانت أعرق البلاد حضارة وأقدمها مدنية وأرسخها حكما وأروعها بناء وزخرفا.

وهى أول بلد ارتفع فيه لواء التوحيد وتوصل أهله إلي البعث والحساب والنعيم والعذاب. واقرأ إن شئت فى معالم حضارتها الزاهرة ودلائل مدنياتها الباهرة قوله تعالى :

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) ﴾ [الدخان].

وتبين لنا أيضا فى هذين المصدرين كذلك أن العرب سيفتحونها وأن القبط سيظاهرونهم على فتحها، وأن منهم من سيدخل فى الإسلام ويكون عدة له وشجنا في حلوق أعدائه، وقد تحقق هذا كله بعد أعوام قليلة من وفاة النبى ﷺ، وفى خلافة الفاروق – رضى الله عنه – على سبيل التحديد.

وقد سبق وأن عرفنا أن النبى ﷺ أوصى أصحابه أكثر من مرة بالقبط وأخبرهم أن لهم فيهم نسبا وصهرا، وقد نفذ الفاروق وصيته هذه فور الانتهاء من فتح مصر فلم يجعلهم فئة للمسلمين يتصرفون فى أنفسهم وبلادهم كما

يشاءون، وإنما صالحهم -رضى الله عنه- جميعا على شروط سبق وأمطنا اللثام عنها وقد وفاها - رضى الله عنه - لهم كاملة غير منقوصة.

وإن ننس فلا ننسى أن نذكر أن فتح مصر كان أمرا تم الاتفاق عليه فى الجابية بين عمر -رضى الله عنه- وأصحاب النبى ﷺ من المهاجرين والأنصار، وأن عمرو بن العاص قد اختير لإنجاز هذه المهمة في هذا المؤتمر كذلك للأسباب التى سبق وأمطنا النقاب عنها، وعلى هذا الأساس فإن الكتاب الذى أرسله الفاروق إلي عمرو والذى لم يفضه إلا بعدما تأكد من أنه أصبح داخل مصر، أسطورة لا نصيب لها من الحق والواقع.

أضف إلي هذا أن فتح مصر لم يكن فى السنة المكملة للعشرين ولا فى السنة التالية لها، وإنما كان كما يقرر ابن الأثير فى السنة السادسة عشرة للهجرة للأسباب التى سبق وأوضحناها من قبل.

وقضية أخرى وهى ما رواه بعض المؤرخين من أن عبدالله بن سعد بن أبي السرح، صالح أهل النوبة على شروط منها : أن يدفعوا إليه فى كل عام عددا من أنفسهم لاسترقاقهم، وأن عثمان - رضى الله عنه - ومن بعده من الخلفاء حتى عمر بن عبدالعزيز قد أقروا هذا الشرط وطبقوه. وهو كلام لا يتفق وما جرى عليه الإسلام من فتح أبواب الحرية على مصاريعها أمام الرقيق حتى يحين الوقت الذى لا يكون للرق فيه وجود.

أضف إلي هذه وتلك قضية ثالثة وهى ما نسبه الخطيب البغدادى إلي عمر بن الخطاب وعامله على مصر عمرو بن العاص من إحراق مكتبة الإسكندرية، وقد ناقشنا هذه القضية من شتى أطرافها، وأقمنا الأدلة الساطعة على أن هذه فرية ما فيها مرية، وأن هذه المكتبة لم تحرق إلا مرتين اثنتين وأنهما كلتاهما كانتا قبل الفتح الإسلامى لمصر.

تبقى قضايا أخرى كثيرة رأيت أن أستغنى عن الإشارة إليها رغبة في الإيجاز من جهة، واعتمادا على تفصيلى لها سابقا من جهة أخرى.

والذى يستعرض تاريخ مصر ويجوس خلال حياتها الثرية طورا بعد طور، ومرحلة إثر مرحلة يتبين له أن الله أعطاها من المزايا والخصائص ما لم يعطه غيرها من البلاد التى نشاطرها الحياة على ظهر هذا الكوكب وأهم هذه المزايا والخصائص فيما أرى العلم الواسع والمعرفة المختلفة الأنواع والألوان والدليل على صدق ما أقول، ما بلغته مصر فى فن تحنيط موتاها وحفظ أجسادهم آلاف السنين بعد الوفاة دون أن يصيبها عطب أو يعتريها تغير ولا تفسخ، حتى إن الذى ينظر إليها لا يتصور أنه قد مضى عليها الألوف بعد الألوف من السنين.

وعلى الرغم مما أوتى عالمنا المعاصر من العلم، وما بلغ من التحضر والتطور، فإنه لم يكتشف حتى الآن سر التحنيط، ولم يحل لغزه البالغ التعقيد.

ومن هذه المزايا والخصائص التى انفردت بها مصر دون غيرها. أنها تغلب ولا تغلب، وتقهر ولا تقهر، ويذوب غيرها فيها ولا تذوب هى فى غيرها، وآية ذلك أن أمما شتى وشعوبا مختلفة استولت على أرضها، وأقامت ما أقامت فوق ترابها ثم زالت واندثرت آثارها ولم يبق منها ما يدل عليها أو يشير إليها.

وبقيت مصر عالية الرأس شامخة الراية رفيعة الشأن والمنزلة حتى إنك لو زرعتها طولا وعرضا لتعثر على إنسان يحمل ملامح إحدى هذه الأمم أو سمات أحد هذه الشعوب فلن تستطيع إلى ذلك سبيلا، ولن ترى أمام عينيك إلا المصريين الذين تجد صورهم على سطوح المعابد وواجهات القبور.

ومعنى هذا أن مصر وأهلها وهبوا الخلود، وأنهم لن يموتوا مادام هذا الوجود.

وإلى هذا المعنى يشير شاعر النيل فى رائعته على لسان مصر فى قوله :

كم بغت دولة على وجارت ثم زالت وتلك عقبى التعدى

تبقى أهم خصائص مصر ومزاياها وهى أن الدين هو كل شىء فى حياتها وأنه جزء لا ينفصل عن كيانها به تحيا وتنتصر وبدونه تزرى وتنكسر.

والذى يطالع صحائف تاريخها ويتتبع مراحل حياتها، يرى هذه الحقيقة واضحة لا يسترها ساتر ولا يحجبها حاجب.

وعلى سبيل المثال، فإن التتار لما طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد، وزحفوا على خلافة الإسلام كالإعصار فقضوا على حضارتها الزاهرة وأغرقوا فى دجلة ثمار عقول علمائها فى كل علم وفن ومضوا فى طريقهم ينشرون الدمار فى كل مكان ويذيعون الخراب فى كل موضع هبت عليهم جنود مصر كالإعصار ففرقت جمعهم وشتتت شملهم وجعلتهم أحاديث ومزقتهم كل ممزق، وكان ذلك على ثرى عين جالوت، كما سجل التاريخ وما قلناه فى المغول نقوله وأشد منه فى الصليبيين، فقد أقبلوا من بلادهم يستهدفون ضرب الإسلام والإجهاز على مبادئه وتعاليمه فبرز لهم من مصر صلاح الدين بن أيوب فأذهب عن قلوبهم وساوس الشيطان وعلمهم أن الإسلام لن تنكث له راية، وفى مصر قلب ينبض أو نفس يتردد.

وكانت معركة حطين وما بعدها من المعارك التى خاضتها مصر معهم دروسا لن ينسوها مهما طال الزمن وتعاقبت الدهور والعصور.

وعلى العكس من ذلك تماما إذ وهنت جذوة الدين فى قلب مصر وخفت صوت الإيمان فى فؤادها، وغرها ما تملكه من العدد والعتاد وظنت أنها قادرة على جنى ثمار الانتصار من هذا الطريق وحده. فكانت هزيمتها التى لا حدود لها في حربها التى خاضتها فى عام سبعة وستين وألف وتسعمائة لكنها سرعان

ما تنبهت إلي خطئها وأدركت سبب هزيمتها، فصالحت ربها وعضت بالنواجز على دينها، فكان انتصارها فى العاشر من رمضان انتصارا لفت أنظار العالم كله وجعله يعيد النظر فى خططه ونظرياتها وحساباته التى على أساسها يدير رحى حروبه ومعاركه، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) ﴾ [محمد].



مصر رباط الإسلام

مصر "رباط الإسلام" سمة مشرقة ميزها بها رسول الله ﷺ في حديث شريف رواه عمرو بن العاص لجنده في أول صلاة جمعة بعد فتح مصر، فقال : حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا، فذلك الجند خير أجناد الأرض، فقال له أبو بكر: ولم يا رسول الله ؟ قال : **لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة.**

ومصر رباط الإسلام هو العنوان لما يعرف اليوم في المصطلح المعاصر باسم "أمن مصر القومي، الذي يكون درعا حاميا وحارسا ليس لمصر فحسب، وإنما صار يشكل أيضا سور العرب العظيم وكذلك قلعة الإسلام الشامخة.

وأمن مصر القومي لم يعد يقتصر – منذ أشرقت شمس الإسلام على مصر في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي – على شئونها المحلية فقط، وإنما اتسع مجاله خارج النطاق المحلي، كما تضاعفت مسئولياتها ليواجه الأوضاع الجديدة التي جعلت من مصر، بحكم موضعها الجغرافي بين شقيقاتها المجاورة من البلاد العربية، في شبه جزيرة العرب والشام والعراق، هي القلب والظهير أيضا لهذا البعد الإقليمي العربي والمسئولة – بحكم موقعها الجغرافي أيضا– عن سلامة تلك الأماكن المقدسة الإسلامية وحمايتها من أي عدوان.

وتأصلت هذه الحقيقة عن أمن مصر القومي بمعنى أنها "رباط الإسلام" القائم بدور سور العرب العظيم وقلعة الإسلام الشامخة، منذ فجر مصر الإسلامية، وذلك على نحو ما جاء في أول خطاب رسمي لفاتح مصر، وهو عمرو بن العاص في مسجده الجامع، حيث قال: "يا معشر الناس .. اعلموا

أنكم فى رباط إلي يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم، وتشوف قلوبهم إليكم إلي داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية. حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض. فقال له أبو بكر: ولم يا رسول الله ؟ قال: لأنهم وأزواجهم في رباط إلي يوم القيامة".

وحمل هذا المفهوم عن أمن مصر القومى باعتبارها "رباط الإسلام" حكام مصر وقادتها - خالفا عن سالف - منذ عمرو بن العاص فى القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى حتى اليوم.

وذلك على نحو ما تمثل فى خمسة معالم كبرى مجيدة، وهى :

أولا: معركة "ذات الصوارى" التى أطاحت فى القرن الأول الهجرى بتهديدات العدو الأول للإسلام، وهى امبراطورية الروم البيزنطيين، وأتاحت للدولة الإسلامية الوليدة بالتالى أسباب النمو والازدهار، وخاصة على امتداد البحر المتوسط.

ثانيا: قيام مصر مباشرة بعد انتصارها فى معركة ذات الصوارى بإعلان الجهاد الشامل من أجل تحرير جيرانها من أهالى بلاد المغرب، من ربقة الروم البيزنطيين، وبناء الجناح الأيسر للإسلام، على امتداد شمالى إفريقيا وغربى أوروبا.

ثالثا: معركة حطين التى أطاحت فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادي بتهديدات الصليبيين للشرق الإسلامى، وأعادت القدس العربية الى أصولها الراسخة فى الإسلام.

رابعا: معركة "عين جالوت" التى أطاحت فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى بتهديدات المغول المدمرة لدار الإسلام وحضارته، وحولت

الغزاة المغول أنفسهم إلى قوة إسلامية تسهم فى إعلاء شأن الإسلام والمسلمين.

خامسا: نصر "رمضان المجيد ١٣٩٣هـ/ أكتوبر١٩٧٣م"، الذي قضى على تهديدات الصهيونية للأمة الإسلامية عن طريق ترويج الأسطورة الزائفة بأن جيش إسرائيل لا يهزم.

معركة ذات الصوارى: (٣٤هـ/ ٦٥٥م)

استهلت مصر منذ الفتح الإسلامى دورها باعتبارها "رباط الإسلام" فى إقرار سيادة المسلمين على البحر المتوسط، وفتح صفحة جديدة من الجهاد الإسلامى لنشر راية الإسلام وإعلاء كلمته. ذلك أن البحر المتوسط يعتبر منذ أقدم العصور المحور الذى دارت عليه أحداث النزاع بين قوى العالم الكبرى من أجل السيطرة والسلطان، حيث كان بقاء الدولة الفائزة رهنا بسيطرتها على مياه هذا البحر وما به من مراكز استراتيجية هامة.

وكان المسلمون، قد صاروا بفتح مصر- إلي جانب استيلائهم على بلاد الشام - يطلون على مياه البحر المتوسط من شواطئ طويلة، تمتد من طرسوس شمالا إلي برقة جنوبا، ويواجهون أخطار العدو الأول للإسلام إذ ذاك، وهى دولة الروم البيزنطيين، التى كانت صاحبة السيادة على هذا البحر الذى أطلقت عليه اعتزازا "بحر الروم".

ووقفت مصر، منذ الفتح الإسلامى على خطورة سيادة امبراطورية الروم علي البحر المتوسط، واستغلالها لقواعدها العديدة بجزر هذا البحر لشن إغارات متكررة على دار الإسلام بمصر والشام، والتصدى لنشر الإسلام على أرجاء هذا البحر الهام من بحار العالم القديم. وبادرت مصر بوضع إمكانياتها البحرية لخدمة مطالب والى الشام إذ ذاك وهو معاوية بن أبى سفيان، الذي أحس خطر

تهديدات الروم من جزيرتهم قبرص على ولايته فى سورية. وكان معاوية بن أبى سفيان قد كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب بشأن جزيرة قبرص قائلا: " يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم، وهم تلقاء ساحل حلب من سواحل حمص، وختم خطابه بعد هذا الوصف الدقيق المؤثر طالبا السماح له بغزو جزيرة قبرص.

ورأى الخليفة عمر بن الخطاب أن يستشير والى مصر إذ ذاك، وهو عمرو بن العاص، فى الطلب الذى تقدم به معاوية، لأن لمصر شواطئ على نفس البحر المتوسط، مثل بلاد الشام، ولأنها كانت معرضة أيضا لإغارات الروم البحرية، وجاء رد عمرو بن العاص، وصفا رائعا لطبيعة البحر وركوب مياهه، وما يلاقيه المرء فى ذلك من صعاب، فكتب إلى الخليفة :

"إنى رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير، إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول.. هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق".

وكان رد عمرو بن العاص سببا جعل الخليفة عمر بن الخطاب يأمر معاوية بن أبى سفيان بأن يتريث في القيام بغزوات بحرية، وأن يعمد إلي تحصين السواحل الإسلامية. ولكن تبدل الموقف حين ولى الخلافة عثمان بن عفان، وإزدياد إغارات الروم البيزنطيين على سواحل الشام. فقد حصل معاوية على موافقة الخليفة بركوب البحر وصد حملات الروم البيزنطية ضد سواحل الشام. وبدأ معاوية بالتنسيق بين أساطيل الشام وأساطيل مصر للتصدى لأكبر حملة بحرية أعدها الروم البيزنطيون ضد السواحل الإسلامية بكل من الشام ومصر.

وخرجت الأساطيل الإسلامية المشتركة من الشام ومصر سنة ٣٤هـ/ ٧٥٥م، تحت قيادة والى مصر إذ ذاك، وهو عبد الله بن أبى السرح، الذى

اصطحب معه زوجته فى تلك الحملة البحرية، دلالة على إيمانه بأن لا خوف من الروم البيزنطيين، وليتيح للمرأة المسلمة شرف المساهمة فى هذا الميدان البحرى الجديد من ميادين الجهاد الإسلامى.

والتقت القوات البحرية الإسلامية بأساطيل الروم البيزنطيين، التى كانت قد وصلت تحت قيادة الامبراطور البيزنطى نفسه، وهو قنسطانز الثانى، عند مكان اسمه "فيونكس" قرب أطراف السواحل الشامية جنوب آسيا الصغرى. ودارت رحى معركة بحرية هائلة بين المسلمين والروم، تعرف فى المصادر البيزنطية باسم معركة "فوينكس"، وفى المصادر الإسلامية باسم "معركة ذات الصوارى" نسبة إلى كثرة صوارى السفن التى اشتركت فى القتال من الطرفين. وأظهرت القوات المصرية الكثير من مظاهر البطولة، حيث حملت الامبراطور البيزنطى على الفرار، وسجلت أعظم نصر للمسلمين فى هذا الميدان البحرى الجديد.

وتعتبر وقعة ذات الصوارى البحرية من المعارك الحاسمة القلائل التى غيرت مجرى تاريخ البحر المتوسط، إذ تقف ذات الصوارى على قدم المساواة مع معركة "أكتيوم" (سنة ٣١ق.م) التى كفلت للرومان السيادة على البحر المتوسط، ولخلفائهم الروم البيزنطيين، حيث ظل البحر المتوسط ينسب إليهم باسم "بحر الروم" إلى ظهور الإسلام. إذ نقلت معركة ذات الصوارى سيادة البحر المتوسط من الروم إلي المسلمين، وجعلته حريا أن يدعى "بحر المسلمين"، نتيجة أداء مصر ودورها البطولى فى هذه المعركة باعتبارها رباط الإسلام.

وتجلت أولى ثمار هذا الدور البحرى لمصر باعتبارها رباط الإسلام فى تأمين الدولة الإسلامية أيام "الفتنة" التى أثارها مقتل عثمان بن عفان، وقيام الصراع بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان، إذ تخلى الروم

البيزنطيون، بعد معركة ذات الصوارى عن أحلامهم فى الإطاحة بتلك الدولة الإسلامية، التى استطاعت بقيام الخلافة الأموية أن تحافظ على هيبتها، وأن تعيد تنظيمها السياسى والإدارى بما أتاح لمصر أن تواصل دورها - باعتبارها رباط الإسلام - في ميدان جديد، وهو تحرير بلاد المغرب من قيود وأغلال الروم البيزنطيين.

قيام مصر بتحرير بلاد المغرب وبناء الجناح الأيسر للإسلام:

أدركت مصر بعد انتصارها فى معركة "ذات الصوارى" أن ذنب الأفعى البيزنطية مازال قائما فيما جاور مصر من بلاد المغرب، وأنه لابد من القضاء على هذا الذنب الخطير استكمالا لتأمين دار الإسلام ذلك أن الحاميات البيزنطية ببلاد المغرب دأبت على متابعة التحفز ضد المسلمين، ولا سيما بعد تمام الفتح الإسلامى لمصر.

وفضلا عن ذلك فإن امبراطور الروم "قنسطانز" عمد بعد معركة ذات الصوارى، إلى تحويل اهتمامه إلى ممتلكاته ببلاد المغرب، ليحول بين الامتداد الإسلامى إلى تلك البقية الباقية من ممتلكات امبراطوريته، وإعادة تنظيم صفوفه بما يتيح له تحقيق مأربه في تبديد قوى المسلمين، الذين صاروا بالانتصار المصرى فى معركة ذات الصوارى قوة لها سيادتها فى البحر المتوسط.

وأحست السلطات المصرية بخطورة هذا التطور العدوانى فى سياسة البيزنطيين على أمن مصر، ذلك أن أهل برقة وما والاها من سكان بلاد المغرب الذين كان يطلق عليهم اسم "البربر"، كانوا يعتبرون من سكان مصر "الأقباط"، وتسود الجميع أواصر المودة والقربى. وكان أول من ترجم هذا الإحساس الإسلامى الجديد تجاه بلاد المغرب، عمرو بن العاص، الذى عمد إلى استطلاع أحوال برقة، ريثما يتم له تأمين فتح مصر. وعهد بتلك المهمة إلى قائد من خيرة

رجاله، المشهود لهم بالشجاعة والشهامة، وهو عقبة بن نافع الفهرى، الذى كان يتصل بعمرو بصلة القربى.

وخرج عمرو بن العاص بنفسه إلى برقة، بعد أن وصلته أنباء مشجعة عنها من عقبة من نافع الفهرى. ورحب أهالى برقة بالمسلمين، ترحيب المصريين قبلهم بالفاتحين المسلمين، واعتبروهم كما اعتبرهم المصريون محررين لهم من ربقة الروم البيزنطيين واستبداد حكمهم. وقضى عقبة بن نافع وقتا طويلا متنقلا بين قبائل برقة، الذين أخذوا يقبلون فى هذا العهد المبكر على اعتناق الإسلام.

وصار عقبة من طلائع خبراء المدرسة المصرية بشئون الأمن الإسلامى، ومتطلباته ببلاد المغرب. ذلك أن الفتح الإسلامى لبلاد المغرب استغرق وقتا طويلا، شمل عهود عدد كبير من خلفاء الدولة الإسلامية، بسبب عناد البيزنطيين المتواصل، وإصرارهم على القيام بأعمال غدر بين القادة المسلمين، وذلك بالدس والوقيعة بين سكان البلاد الأصليين ومن يتصل بهم من المسلمين. وقامت متطلبات الأمن الإسلامى ببلاد المغرب على ثلاث ركائز، تشد الواحدة منها من أزر الأخرى، وهى :

الركيزة الأولى، وتولى إرساء قواعدها عقبة بن نافع الفهرى، بناء على ما حصل عليه من تجارب أثناء الحملات التى خرج بها من مصر إلي بلاد المغرب. فقد توصل إلى ضرورة بناء قاعدة في بلاد المغرب تكون امتداد للقاعدة الإسلامية الكبرى بالفسطاط، عاصمة مصر الإسلامية إذ ذاك، تكون صالحة لاستقبال الإمدادات من مصر، ومتابعة الفتوح بشمالى إفريقيا. وشرح عقبة تلك الأهداف لجنده حين وصل إلى أرض إفريقية (تونس الحالية)، على رأس حملة كبيرة من مصر سنة ٥٠هـ/٦٧٠م، وأسس بها مدينة القيروان، إذ قال لجنده : "وأرى لكم - يامعاشر المسلمين - أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكرا، وتكون عز الإسلام إلى أبد الدهر".

الركيزة الثانية : وهى التى أرسى قواعدها خبراء مدرسة مصر بالشئون الإفريقية، وذلك بانتهاء عقبة من تأسيس القيروان. فقد كان أولو الأمر فى مصر على صلة دائمة بأحوال بلاد المغرب، ويرسمون الخطط لنشر الإسلام والعروبة بين أهلها وفق تطورات الأحداث، وما يتطلبه تغير الأوضاع والملابسات الزمنية. ورأى خبراء مدرسة مصر بالشئون الإفريقية أن دور عقبة قد انتهى بتأسيس القيروان، وأن تطور الأحداث يفضى وضع الإدارة في القروان فى أيدى شخصيات تجمع الخبرة الحربية والدراية بالشئون السياسية القادرة على حسن تنسيق وسائل الاتصال مع البربر، السكان الأصليين للبلاد. ذلك أن الروم البيزنطيين، عمدوا بعد تأسيس المسلمين للقيروان، إلي التودد إلي البربر، وكسبهم إلى جانبهم، بشتى وسائل الإغراء وللحيلولة بين امتداد نشاط المسلمين من قاعدتهم القيروان إلى داخل بلاد المغرب.

وتولى والى مصر إذ ذاك، وهو مسلمة بن مخلد تنفيذ خطط خبراء مدرسة مصر بالشئون الإفريقية، حيث عزل عقبة، وعين بدلا منه على إدارة القيروان "دينار أبو المهاجر" (٥٥-٦٢هـ/٦٧٤-٦٨١م)، وهو قائد، يجمع إلى جانب الشجاعة والقدرة على القتال مواهب سياسية عالية، أتاحت له بناء أسباب التفاهم السليم مع البربر سكان البلاد الأصليين، وتبصرتهم بخطورة دسائس الروم البيزنطيين.

وحقق هذا الوالى الجديد للقيروان الأهداف الجديدة لخبراء مدرسة مصر بالشئون الإفريقية حين نجح فى اكتساب صداقة أحد كبار زعماء البربر، وهو كسيلة، زعيم أقوى قبيلة ببلاد المغرب، وهى قبيلة أوربة. فلم يلبث أن اعتنق كسيلة الإسلام، وتبعه سائر أفراد قبيلته، وصار عونا للمسلمين فى جهادهم من أجل تحرير بلاد المغرب من نير الروم البيزنطيين ودسائسهم.

وكشفت الأحداث عن صدق قرار والى مصر بعزل عقبة وتعيين دينار أبى المهاجر، حين استطاع عقبة أن يعود، نتيجة مساعيه المتواصلة لدى الخلافة فى دمشق، إلى القيادة فى القيروان بعد انتهاء ولاية مسلمة بن مخلد على مصر. ذلك أن ولاة مصر صارحوا عقبة حين التقائهم به، وهو فى طريقه إلى القيروان بمخاوفهم من مغبة عودته قسرا عنهم إلى القيادة الإفريقية، وأنهم يشكون فى قدرته على مسايرة التطورات الجديدة، التى نجح دينار أبو المهاجر فى تسخيرها لخدمة المسلمين، بنجاحه في ضم زعيم قبيلة أوربة المغربية إلى الإسلام، ونبذ سياسة التحالف مع الروم البيزنطيين.

وتحققت مخاوف خبراء مدرسة مصر بالشئون الإفريقية حين وصل عقبة إلي القيروان سنة ٦٢هـ/٦٨١م، فقد عجز عن تأليف قلب كسيلة إليه، فضلا عن إهماله لهذا الزعيم المغربى، بالرغم من النصائح التى قدمها دينار أبى المهاجر لعقبة، حين أعد القوات الإسلامية لمواصلة الزحف على شمال إفريقيا. فما كاد عقبة ينتهى من حملته التى بلغ فيها مدينة طنجة، ويتوجه عائدا إلى القيروان، حتى اتصل الروم البيزنطيون بكسيلة، وأغروه على الانضمام إليهم، والاشتراك معهم فى كمين وقع فيه عقبة، الذى دفع حياته سنة ٦٣هـ/٦٨٣م - أى بعد عام واحد فقط مس عودته إلى القيروان - ثمنا لإهمال تعاليم وإرشادات خبراء مدرسة مصر بالشئون الإفريقية.

وزادت تلك الأحداث من إيمان الإدارة ليس فى مصر وحدها، بل وعند الخلافة الأموية فى دمشق، بحتمية متابعة الجهاد ضد الروم البيزنطيين، وفصم عرى التحالف بينهم وبين البربر، سكان البلاد الأصليين. وتجلى التعاون فى تلك السبيل بين والى مصر إذ ذاك، وهو عبدالعزيز بن مروان، وأخيه الخليفة الأموى فى دمشق، عبدالملك بن مروان. ففى الوقت الذى قامت الاستعدادات الحربية فى مصر على قدم وساق، بعثت الخلافة بأشهر قادتها وهو حسان بن النعمان،

الذى خرج من مصر على رأس حملة عظمى سنة ٧٦هـ/٦٩٦م، استردت القيروان، وأعادت بها سلطان المسلمين.

ووجدت السلطات فى مصر أن شئون الفتح الإسلامى بإفريقيا مازالت بحاجة إلي مزيد من الاستعداد الحربى، لأن حسان بن النعمان واجه قلاقل داخلية حملت لواءها امرأة تدعى الكاهنة، نجحت في إنزال الهزيمة بقوات حسان، وحملته على الانسحاب من القيروان. واستغرقت الاستعدادات الحربية فى مصر خمس سنوات، زحف بعدها حسان بن النعمان على إفريقية مرة أخرى سنة ٨١هـ/٧٠٠م، وقضى على سلطان الكاهنة. وعززت السلطات فى مصر جهود حسان بن النعمان بمساعدته على بناء ميناء بحرى جديد سنة ٨٥هـ/٧٠٤م، حيث أرسلت إليه مجموعة من أشهر العمال المصريين وأسرهم لتأسيس تلك القاعدة البحرية، والإقامة بها لإدارة شئونها.

ورأت مدرسة خبراء مصر بالشئون الإفريقية، نتيجة هذا المد والجزر فى الحركات الحربية أن الوقت قد آن لإرسال شخصية أخرى إلي الميدان الإفريقى قادرة على إنهاء تلك الأوضاع القلقة، واستكمال نشر الإسلام بين أهالى البلاد، وتأمين أحوالهم تأمينا تاما. وقام والى مصر، وهو عبدالعزيز بن مروان بعزل حسان بن النعمان، الذى كان الخليفة الأموى قد عهد إليه بالأمور فى بلاد المغرب، وعين مكانه أحد كبار القادة من رجال مصر، وهو موسى بن نصير.

وشرح هذا القائد الجديد أسباب هذا التغيير، حين دخل القيروان، موضحا للناس أهمية رأى خبراء المدرسة المصرية بالشئون الإفريقية، ونزول الخلافة الأموية نفسها عند رأى خبراء تلك المدرسة المصرية، فقال : أيها الناس، إن أمير المؤمنين، أصلحه الله، رأى رأيا فى حسان ابن النعمان، فولاه ثغركم، ووجهه أميرا عليكم، وإنما الرجل فى الناس بما أظهر، والرأى بما أقبل وليس فيما أدبر..

وإنما الأمير (أى عبد العزيز بن مروان والى مصر) صنو أمير المؤمنين وشريكه، ومن لا يتهم فى عزمه ورأيه. وقد عزل حسان عنكم، وولانى مكانه عليكم ولم يأل أن أجهد نفسه فى الاختيار لكم، وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى منى حسنة فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى منى سيئة فلينكرها، فإنى أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون.. ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان، من المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وتجنب موسى بن نصير الخطأ الذى وقع فيه أسلافه لفضل الدراسة والإعداد اللذين لقيهما فى مدرسة خبراء مصر بالشئون الإفريقية. إذ استطاع تأمين القيروان، وجعلها قاعدة لتنظيم قواته الحربية، ونقطة انطلاق إلى سائر الأرجاء الإفريقية.

وأقدم موسى بن نصير على خطوة أخرى هامة، كللت جهود مصر باعتبارها رباط الإسلام، وذلك حين ضم إلى قواته نفرا من كبار أبناء البلاد الأصليين الذين حسن إسلامهم، وإجادتهم اللغة العربية.، ومن أشهرهم أحد أبناء قبيلة نفزاوة المغربية، وهو طارق بن زياد. واستطاع موسى بن نصير بهذا التنظيم الجديد وحسن اعتماده على أبناء البلاد الأصليين من إتمام فتح بلاد المغرب، وإخراج البيزنطيين نهائيا مما تبقى لهم من قواعد بتلك البلاد.

وبرهن موسى بن نصير عمليا مرة أخرى على سمو أهداف مدرسة خبراء مصر بالشئون الإفريقية حين عهد بالقيادة العليا للجيش الإسلامى المرابط فى طنجة إلى طارق بن زياد نفسه، وخوله سلطات حربية مطلقة وسياسية وإدارية كذلك. والأمر الجدير بالاهتمام هنا هو أن القيادة العليا التى مارسها طارق بن زياد لم تقتصر على جند من الأهالى المحليين، وإنما عمل تحت إمرته جند من العرب، وهو ما سبق أن انفرد به ابن مدرسة خبراء مصر

بالشئون الإفريقية، وهو موسى بن نصير، حيث كشف لمواطنيه ولأبناء المغرب على السواء أن مفهوما جديدا للعروبة، أخذ طريقه إلي الوجود من مصر، تأكد به أن العربى لم يعد هو كل من خرج من الجزيرة العربية، وإنما كل من يتكلم العربية فهو عربى، وأن الأمة العربية الفتية، التى صارت مصر تحمل لواءها، لا تفرق بين قائد وآخر.

فالكل أبناء بررة لها، سواء أكانوا من قادة الفتوح الأولى أمثال خالد بن الوليد وعمر بن العاص، أم كانوا من القادة المحدثين أمثال موسى بن نصير وطارق بن زياد، وهذا الأخير هو عنوان العروبة بمفهومها المبكر الجديد، الذى أطلقته مدرسة خبراء مصر بالشئون الإفريقية.

وأتت مدرسة خبراء مصر بالشئون الإفريقية ثمارها حين جعلت من ولاية طارق على طنجة، دلالة عملية على أن راية الجهاد الإسلامى انتقلت من أيد عربية عريقة إلى أيد عربية فتية، فى روح من المحبة والمودة والتعاون المثالى. وكان من حسن طالع الإسلام أن تأتى هذه الثمرة الطيبة من ثمار مدرسة خبراء مصر بالشئون الإفريقية فى هذه المرحلة المبكرة من انتشار الدين الإسلامى.

إذ صار الإسلام - بعد اتمام فتح بلاد المغرب يطل على أرض جديدة هى أوروبا، التى سكنتها عناصر لم يسبق للعرب الذين خرجوا من شبه جزيرة العرب معرفتها أو خبرة أحوالها. فكان أولئك العرب حين انطلقوا من موطنهم حاملين راية الإسلام يجوبون بلادا سبق لهم دراسة أحوالها والاتصال بأهلها عن كثب، إذ ارتادت قوافلهم التجارية بلاد الشام ومصر قبل أن يحملوا راية الإسلام إليها، كما زارت وفودهم بلاد كسرى "الفرس" قبل أن يسيطروا على إيوان كسرى فى عز الإسلام ومجده.

وإذا أدركت مصر فى أدائها لدورها باعتبارها رباط الإسلام، أن الفتوحات الإسلامية التى خرجت من ديارها إلى شمال فريقيا فى حاجة إلي قيادات جديدة شابة ومؤمنة برسالة الإسلام وأهدافه السامية. إذ سكن بلاد أسبانيا التى صارت على مقربة من دار الإسلام ببلاد المغرب عنصر سكانى جديد، هو العنصر الجرمانى المعروف باسم "القوط الغربيين"، الذين كانوا أول من حطم السيادة الرومانية القديمة على غربى أوروبا، وظلوا مصدر القوة والسلطان في غربى البحر المتوسط حتى إتمام الفتح الإسلامى لبلاد المغرب.

وهكذا كان إظهار خبراء مدرسة مصر بالشئون الإفريقية لشخصية طارق بن زياد سبيلا لرباط الإسلام بأبناء طبقة جديدة من القادة الجدد القادرين على مواجهة هذا الامتداد الجغرافى الشاسع فى غربى أوروبا، والعمل على نشر الإسلام بين أرجاء تلك البلاد الأوروبية.

فقد هيأ موسى بن نصير لأحد أبناء المغرب، وهو طارق بن زياد، كل الفرص ليبرهن على أن أهل المغرب صاروا جندا يتسابقون فى نشر الإسلام بنفس الحماسة التى أظهرها العربى الأول، وأن هذا الوليد المسلم العملاق لا يقل كفاءة عن أقرانه من قادة الفتوح العرب، من أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، فى قيادة الجيوش الإسلامية، وإعزاز كلمة الإسلام والمسلمين.

وظهرت بشائر العهد المغربى الإسلامى الجديد على يد كل من طارق بن زياد وموسى بن نصير، حيث أجاد كل منهما التنسيق بين بلاده الوليدة وبين قاعدة الإسلام الكبرى فى مصر، وتجلى هذا التعاون المبكر فى شتى النواحى، ليست الحربية والإدارية فحسب، بل وفى النواحى الثقافية أيضا. وكان من طلائع التنسيق الحربى التعاون بين القوات البرية والبحرية المغربية والمصرية فى قيام طارق بن زياد بحملته سنة ٩٢هـ/٧١١م، التى انتهت بفتح بلاد الأندلس، سنة ٩٥هـ/٧١٥م، وإرساء أول قاعدة لدار الإسلام بغربى أوروبا.

وغدت مصر قاعدة الجناح الأيسر للإسلام، تدعم روابطه مع سائر أرجاء العالم الإسلامى، وتؤكد منذ فجر تاريخها الإسلامى أنها رباط الإسلام، الساهر على أمن المسلمين، وسلامة ديارهم، وذلك فى ركن جديد من أركان العالم المعروف إذ ذاك، وهو قارة أوروبا، ومراقبة ما قد ينطلق منها نحو دار الإسلام.

معركة حطين (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) :

عظمت مسئوليات مصر باعتبارها "رباط الإسلام"، وازدادت أعباؤها بعد معركة ذات الصوارى إذ ظل مركزها الجغرافى الجذاب أعظم إغراء سياسي للمجتمع الأوروبى المسيحى من سائر المراكز العربية الإسلامية الأخرى، وغدت مصر لذلك أكثر تعرضا لما يتحرك أو يرتكض بين أحشاء المجتمع المسيحى الأوروبى من حركات توسعية، سياسية، أو اقتصادية، أو دينية، أو هذه كلها مجتمعة في حركة طامة واحدة، كما حدث عند قيام الحروب الصليبية، ووصول جيوشها من مختلف بلاد غربى أوروبا إلي القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية، فى طريقها إلى الشرق الإسلامى أواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى.

ولعبت مصر فى هذه المرحلة من الحزوب الصليبية دورا قمينا فريدا فى كل تاريخها يكشف عن جوهر ومكنون شخصيتها باعتبارها رباط الإسلام، ربما أكثر من أى وقت مضى، إنه فصل من أروع فصول هذا الدور الذى لعبته مصر باعتبارها "رباط الإسلام" تحت زعامة صلاح الدين الأيوبى. ذلك أن الصليبيات كانت زحفا أوروبيا، استراتيجيا، وإيديولوجيا دينيا، مدفوعا بالجفاف الحضارى الذي أصاب النظام الإقطاعى الأوروبى، وكشف عقمه حين بدأ خطر جرثومة البرجوازية البارعة في المدن الجديدة يهدده بعد نحو ألف سنة من الاستقرار الزراعى الجامد.

وشبه المؤرخون الغربيون أنفسهم الموجات الصليبية التى خرجت تداهم الشرق الإسلامى "بغزارة رمال البحر ونجوم السماء" وأن بعض الحملات الصليبية تجاوزت المليون محارب، وذلك عدا شرنقة أكثف وأضخم من المتطوعة والأتباع وهنا يتحدد موقع مصر ودورها المحورى باعتبارها رباط الإسلام فى تحطيم الصليبيين الذين نجحوا فى انتزاع موطئ قدم لهم فى الشام الساحلى وأعالى الفرات، حيث أسسوا لأنفسهم أربع إمارات صليبية هى : الرها وأنطاكية وطرابلس، وكلها تدور حول رئاسة لها هى مملكة بيت المقدس الصليبية بفلسطين.

وأدرك الصليبيون منذ تأسيس إمارتهم بالشرق الإسلامى أن مركز ثقل القوة فى المنطقة كلها إنما يرقد فى مصر، التى اعتبروها حرفيا "رأس الأفعى" ومستودع الإمدادات. ومن ثم اتجه الصليبيون إلى مصر بطريق جديد هو الغزو البحرى والبرى المباشر. وكان من أهم معالم هذا التطور الحملة الصليبية سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م على دمياط، ميناء الشرق الكبيرة، حيث حاصرتها قوات مشتركة من أساطيل بيزنطية وصقلية، مؤازرة لزحف صليبى برى متوقع من مملكة بيت المقدس على مصر. وتصدى صلاح الدين لهذا العدوان الصليبى على دمياط بحصار محكم حتى أرغم الصليبيين على الانسحاب.

وموضع الأهمية الكبرى فى فشل هذه الحملة الصليبية هو ما صار لصلاح الدين من مكانة مرموقة وسلطان فى قلوب أهل مصر، إذ اقتنع الخاص والعام بأن فى استطاعته حماية البلاد من إغارة المغيرين، فضلا عن أن قلعة صلاح الدين السياسية ازدادت طولا، وعظمت شخصيته الحربية هيبة، فى ملف الدوائر المعاصرة فى مصر والشام وفلسطين، ولم يبق لديه لإثبات زعامته سوى الجهاد ضد الصليبيين، وإقرار أن مصر هى دائما وأبدا "رباط الإسلام".

ويدعى أن صلاح الدين جعل من مصر ومواردها الاقتصادية قاعدة

ومصدرا لعملياته الحربية والدبلوماسية التى تطلبها هدفه الكبير، وهو الجهاد ضد مملكة بيت المقدس الصليبية التى غدت مركز العدوان المستمر على الشرق الإسلامى. ومن ثم أتاحت مصر لصلاح الدين اتخاذ انتصاره على الصليبيين فى دمياط فاتحة لسلسلة من العمليات الحربية الهجومية ضد مملكة بيت المقدس الصليبية، التى قام أحد رجالها وهو "أرناط" صاحب حصن الكرنك الواقع فى الجنوب الشرقى من البحر الميت بأخطر تهديد، اهتز لجرأته العالم الإسلامى عامة، وهو الهجوم على الأماكن المقدسة الإسلامية نفسها بمكة والمدينة المنورة.

وكان أرناط قد أعد لهذا العدوان الغادر سفنا نقلها أجزاء على ظهور الجمال إلي خليج العقبة، وقام بحملة بحرية جريئة، استولى بها أولا على ميناء أيلة المصرى، ثم نهب مدينة عيذاب المصرية، وأخيرا عبرت السفن الصليبية إلى ساحل بلاد العرب، واستولت على مراكب راسية بميناء الحوراء شمالى ينبع والمدينة المنورة، وأبحرت منها إلى رابغ، وهى إحدى موانى مكة. غير أن صلاح الدين بادر سريعا بإرسال حملة بحرية من مصر تحت قيادة أمير اسمه حسام الدين لؤلؤ، تعقبت حركات السفن الصليبية، التى كانت قد بلغت إذ ذاك ميناء الحوراء، فأحرق معظم السفن الصليبية.

وتابعت القوات المصرية مطاردة فلول الصليبيين الذين فروا إلي الساحل، وأخذوا منهم كثيرا من الأسرى عادت بهم السفن المصرية دلالة على القضاء على هذا الخطر الصليبى الغادر. وشهد الرحالة المغربى ابن جبير موكب هؤلاء الأسرى الصليبيين وهم يطاف بهم فى الإسكندرية، وما كان لهذا النصر من إعلان عن أهمية دور مصر باعتبارها رباط الإسلام، قائلا :

"وذلك أنا لما حللنا الإسكندرية .. عاينا مجتمعا من الناس عظيما، برزوا لمعاينة أسرى من الروم (الصليبيين)، أدخلوا البلد راكبين على جمال، ووجوهم

إلي أذنابها، وحولهم الطبول والأبواق. فسألنا عن قصتهم، فأخبرنا بأمر تنفطر له الأكباد إشفاقا وجزعا، وذلك أن حملة من نصارى الشام (الصليبيين) اجتمعوا وأنشأوا مراكب فى أقرب المواضع التى لهم على بحر القلزم (البحر الأحمر)، ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم، بكراء اتفقوا معهم عليه. فلما حصلوا ساحل البحر سمروا مراكبهم، وأكملوا إنشاءها وتأليفها، ودفعوها فى البحر وركبوها، قاطعين بالحجاج.

"وأحدثوا (أى الصليبيين) حوادث شنيعة لم يسمع مثلها فى الإسلام، ولا انتهى رومى (صليبى) إلى ذلك الموضع قط، ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة. وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول ﷺ وإخراجه من الضريح المقدس، وأشاعوا ذلك وأجروه على ألسنتهم، فأخذهم الله باجترائهم عليهم، وتعاطيهم ما يحول عناية القدر بينهم وبينه.

ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم، فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والإسكندرية، وصل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ، مع أجناد من المغاربة البحريين، فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه، فأخذوهم عن آخرهم، وكانت آية من آيات العنايات الجارية، وأدركوهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان، نيف على شهر ونصف أو حوله، وقتلوا وأسروا، وفرق من الأسارى على البلاد، ووجه منهم إلى مكة والمدينة، وكفى الله بجميل صنعه الإسلام والمسلمين أمرا عظيما، والحمد لله رب العالمين".

والمعروف أن صلاح الدين أقسم وقتذاك يمينا مغلظة لينتقمن من أرناط على إساءاته المهينة واعتدائه، واتجه هو بنفسه أكثر من مرة لتحقيق هذه الغاية، التى حان وقتها حين اتجه صلاح الدين لضرب الصليبيين فى الوقعة المشهورة عند "حطين" بفلسطين، وذلك يوم ٢٥ربيع الثانى سنة ٥٨٣هـ/٤ يوليو١١٨٧م، تأديبا لأرناط الذى انتقل من تدبير الهجوم على الأراضى المقدسة الإسلامية إلى مهاجمة القوافل الإسلامية بين مصر والشام.

وجمع صلاح الدين لوقعة حطين معظم الجنود المصرية وإمكانات مصر المادية أيضا، حيث حشدت مملكة بيت المقدس لتلك المعركة أيضا خيرة جنودها وفرسانها. انتهت المعركة بتطويق صلاح الدين للجيش الصليبى، وإبادة معظمه، ووقوع قادته أسرى فى قبضته، منهم جاى لوزنيان صاحب مملكة بيت المقدس، وأرناط صاحب حصن الكرك، ومرتكب الإساءات البشعة ضد المسلمين، حيث أعدمه صلاح الدين بنفسه، برا بالقسم الذى سبق أن أخذه على نفسه، وذلك على حين أثبت صلاح الدين سمو الإسلام وأهله حين أطلق سراح الأسرى الصليبيين، ومن بينهم ملك بيت المقدس نفسه.

ويجمع المؤرخون على أن وقعة حطين كانت ناقوس الفناء الكبير لكيان المملكة الصليبية ببيت المقدس، وللصليبيين جميعا بالشرق، والواقع أن هزيمة حطين كانت بداية النهاية لجميع الأحلام الصليبية المحلية والأوروبية، حيث أعقب تلك المعركة استسلام بيت المقدس للمسلمين، حيث دخلها صلاح الدين يوم ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ، وهو يوم المعراج الموافق ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م.

وكشفت مصر بانتصار صلاح الدين في معركة حطين عن دورها المجيد باعتبارها "رباط الإسلام"، فقد كانت قاعدة للتدريب المتواصل لقوات صلاح الدين، حيث عبأت البلاد مواردها فى سخاء لبناء تلك القوة العسكرية وتزويدها بما يهيئ لها الفوز والنصر، إذ بلغ عدد الفرسان الذين تولوا قيادة الجيش نحو ٨٦٤٠ فارسا، بلغت نفقاتهم والمرافقين لهم مبلغا كبيرا مقداره ٣٦٧٠٥٠٠ دينار، هذا مع إزدياد النفقات التى قدمتها مصر أيضا على امتداد الجهاد الذى بلغ ذروته وشدته، حتى وصلت نفقات القوات المحاربة كلها إذ ذاك مبلغا مقداره ٤٦٥٣٠١٩ دينارا.

وقد عبر القاضى الفاضل، وزير صلاح الدين الأيوبى عن هذا الدور الخالد الذى قدمته مصر بشريا وماديا باعتبارها رباط الإسلام إلى صلاح الدين، وذلك فى أسلوب بليغ وأقوى بيان قائلا له

" يا مولانا، أعلم أن الله تعالى فعل لك ما فعله لنفسه، ودل على لطفه بك كما دل على قدرته، فإنه تعالى خلق الخلق من غير مادة، وأقام السماء بغير عمد، وكذلك فعل الله بك : خلقك من غير شبيه فى الملوك كرما ودينا، وسهل لك من مصر مالا من غير جهد، وحمى منها بلادا من غير جند.. فاشكر الله على من يبيع الأنفاس والنوم والراحة (وهم أهل مصر) اجتهادا فيما يريحك ويخفف عنك، ثم لا يريد العوض منك، إنما يريده من الله عنك لأن خدمتك طاعة له".

معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م:

عمدت مصر منذ جاءتها أخبار تخريب المغول لبغداد وقتل الخليفة المستعصم، وتهديدهم بلاد الشام إلي خلق جبهة عربية متحدة، تتصدي لهذا العدوان الجديد الذى مزق العراق والشام، وكاد يطيح بحضارة الشرق الإسلامى وتراثه. واستلهمت مصر تلك الفكرة من جهادها الذى فرغت منه منذ زمن يسير ضد الصليبيين، حيث أدركت السلطات المصرية أن تضامن البلاد العربية وتوحيد صفوفها خير سبيل لصد اعتداءات الطامعين والمحتلين على اختلاف نزاعاتهم وأساليبهم.

وأثبت سلطان مصر إذ ذاك، وهو قطز أنه رجل المواقف. فبادر إلى إعداد الصالحية، وجعلها مركزا لتجمعات قوات الشام التى وفدت إلي مصر نجاة بنفسها من زحف المغول. وخرج قطز بنفسه إلى مقابلة أمراء تلك القوات الشامية والترحيب بهم، وتيسير سبل الإقامة لهم، وفى الوقت نفسه أخذ يرفع من روح أولئك الجند المعنوية، ويبث فيهم الأمل والثقة بالنفس، ويزيل ما علق فى عقولهم من عقد نفسية عن وحشية المغول، وأنهم قوم لا ينهزمون ومن ثم استأنف أمراء الشام فى مصر استعداداتهم الحربية، والعمل على المشاركة فى الجهاد الذي كانت أسبابه قائمة على قدم وساق في مصر.

وانتهت السلطات المصرية فى وقت قصير من تعبئة قواتها لحرب المغول ماديا ومعنويا، إذ تولى نفر من رجال الدين المصريين تلقين الجند معانى المهمة التى انتدبوا للدفاع عنها، وتهيئة شعورهم للجهاد. وفى نفس الوقت أسرع الأهالى بأداء الضرائب المطلوبة منهم حتى يتسنى إعداد الجيوش المصرية والإنفاق على مطالبها.

وفضلا عن ذلك دفع كل مصرى دينارا أشبه بضريبة الدفاع، حيث خصصت حصيلتها للحملات المقبلة ضد المغول، وعنوانا على إسهام المصريين جميعا، مدنيين وعسكريين، في الدفاع عن وطنهم العربى الكبير وأمتهم الإسلامية.

وصار السلطان قطز بعد ذلك على رأس القوات المصرية إلي الصالحية، حيث انضم إلي القوات الشامية المرابطة هناك. وحرص قطز على ألا يضيع الأمراء وقتهم فى المجاملات الرسمية، أو إنفاق مبالغ لا داعى لها فى سبيل الترحيب بمقدم السلطان فطلب ألا تعد ولائم لمقدمه أو لأمرائه، وأن يكتفى الجند بتناول قطع اللحم المقددة يضعونها في المخلاة التى تضم باقى حاجاتهم الغذائية.

وبعد تكامل اجتماع الجند استدعى قطز الأمراء، وأخذ يخطب فيهم، شارحا لهم الواجب الخطير الذي ألقي على عاتقهم، ويحثهم على الجهاد، ويبين لهم أن الرواتب التى تناولوها من بيت المال، إن هى إلا ضريبة قدمها لهم أبناء الوطن فى سبيل تحملهم أعباء الدفاع، وأن الجميع ينظرون إليهم بعين ملؤها الأمل والتقدير، بعد أن جاءت ساعة العمل.

وكان خطاب قطز فى هذا المجلس الحربى خطابا حماسيا أعلن فيه أنه أول من يخرج لقتال المغول، ولو كان بمفرده فلن يتردد فى أن يضحى بنفسه

فى سبيل صد هذا التيار الكاسح، ويلقى ربه مرتاح الضمير، بعد أن يؤدي واجبه، فقال قطز فى ختام خطابه : "إما أن ألقي المغول بنفسى، فمن اختار الجهاد صحبنى، ومن لم يختر ذلك يرجع إلي بيته فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين". وانتقلت روح الحماسة من قطز إلي سائر الأمراء، حيث تدافع الجميع فى عزم صادق ومضاء لمواجهة المغول.

وظهرت طلائع القوة المادية والمعنوية للقوات التى أعدتها مصر، حين رفض السلطان قطز خطابا مليئا بالتهديدات المخيفة أرسله إليه هولاكو، قائد المغول، الذى وصلت طلائعه بلاد الشام، واقتربت من فلسطين. إذ أمر قطز بقتل حاملى تلك الرسالة إليه من قبل المغول، دلالة على إعلانه الصريح لتحدى المغول، وإعلان الحرب الشاملة عليهم كذلك.

وكان هولاكو قد اضطر إلي العودة إلي عاصمة المغول الكبرى فى "قر قورم" بسبب وفاة "منجوخان"، وانتخاب خاقان جديدا بدلا منه. وترك هولاكو على رأس قواته الهائلة بالشام أعظم قادته وأشهرهم جرأة ومقدرة على التخريب، وهو المعروف باسم "كتبغا". وكانت جحافل المغول قد انتشرت فى سائر أرجاء الشام تعيث فيها فسادا، حتى اقتربت من غزة على أطراف الحدود المصرية نفسها، ونهبت أموال الأهالى وماشيتهم، وكل شىء وقع فى أيديهم.

وفى شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م خرجت القوات المصرية الشامية، وهى على أهبة الاستعداد لمنازلة المغول، ويسودها النظام الدقيق. ذلك أن السلطان قطز أمر أعظم أمرائه، وهو ركن الدين بيبرس البندقدارى بأن يتولى قيادة الطليعة من جيوش الجبهة العربية، ويتقدم فى الزحف ليستطلع أخبار المغول، ويدرس مواقفهم وخططهم، وهو شئ جديد لم يشاهد من قبل فى حروب المسلمين ضد المغول، إذ كان أمراء المدن العربية يكتفون بتقوية الحصون عندما تصلهم تهديدات المغول، والعمل على الدفاع من وراء الأسوار.

ونجح قطز فى هذه المرحلة الأولى من زحفه، إذ ما كاد ركن الدين بيبرس يصل إلى أطراف الحدود المصرية حتى علم بوجود المغول في غزة، فيسارع إلي ملاقاتهم دون خوف أو وجل. وسرعان ما دب الضعف فى نفوس المغول الذين لم يتوقعوا هذا الزحف المفاجئ من الجيوش المصرية الشامية، وهربوا من غزة، مسجلين على أنفسهم أول انسحاب لهم فى تاريخهم الحربى. ودخل ركن الدين بيبرس غزة ومهد الطريق إليها لاستقبال القوات الرئيسية وسرعان ما وصل قطز إلي غزة، وأقام بها يوما، ثم تابع سيره لملاقاة المغول.

وشاء الله تعالى أن يجعل ميدان المعركة لتحرير الشرق الإسلامى من خطر المغول، على أرض فلسطين التى سبق أن خلد على ترابها صلاح الدين انتصاراته الرائعة على الصليبيين فى حطين، إذ انضم قطز بقواته إلى الطلائع التى تولى قيادتها بيبرس، وكانت إذ ذاك عند "عين جالوت" بين بيسان ونابلس بأرض فلسطين. ونظم قطز القوات المصرية والشامية عند هذا الموقع الجديد، وجعلهم على أهبة قتال المغول. ثم أمر قطز بعقد مؤتمر حربى حضره رؤساء الفرق الحربية لرسم خطة المعركة.

ولم ينس قطز أن يستغل هذا الاجتماع ليثير الحماسة فى نفوس الحاضرين، ويذكرهم بجلال الدور الذي سيقومون به، وأهميته فى إزالة المفاسد والمذابح التى سبق أن قام بها المغول، وكان خطاب قطز بليغا فى استعراضه لمساوىء المغول، حتى إن الأمراء ورؤساء الفرق الحربية اجهشوا بالبكاء، وصمموا على الاستماتة في محاربة هذا العدو المخيف، وأقسموا أغلظ الأيمان على التفانى فى الجهاد.

واستعد كتبغا، نائب هولاكو المغولى بالشام، عندما بلغه نبأ زحف القوات المصرية الشامية، فأصدر أمره بجمع الجند المتفرقين فى سائر أنحاء البلاد، وتنظيم صفوفهم عند عين جالوت، واتخذ قراره بالهجوم، بعد أن توغلت القوات المصرية الشامية فى إقليم فلسطين، وأنزلت بالمغول متاعب شديدة.

وفى يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م التقت مقدمة القوات المصرية بطلائع المغول، وأنزلت بها هزيمة فادحة. وفى صبيحة اليوم التالى استطاع المغول أن يعيدوا تنظيم صفوفهم، واحتلوا المنطقة الجبلية من مسرح القتال، ليسيطروا على الميدان، حتى صار منظرهم يبعث على الرهبة في النفوس، لا سيما أنهم كانوا متحفزين للانتقام والدخول فى معركة حاسمة.

وعندما اصطدم العسكران أظهر السلطان قطز مهارة وشجاعة نادرة فى القتال، ولرفع روح الجند المعنوية، فاشترك بنفسه فى المعركة. وحدث أن جواده أصيب بسهم أرداه قتيلا، فنزل قطز من على الجواد، وصار يحارب على قدميه، ورآه بعض الأمراء الأبطال، فترجل عن جواده وقدمه له، فامتنع قطز من ركوبه، وقال له : ما كنت لأمنع المسلمين من الانتفاع بك فى هذا الوقت، وظل قطز يحارب على قدميه حتى جاءه أتباعه بجواد آخر.

ولما اشتد القتال ألقى قطز خوذته على الأرض، وصاح بأعلى صوته :" وا إسلاماه" وحمل بنفسه علي المغول، فازداد حماس الجند، وهجموا على المغول فى عنف، حتى إن قائدهم الأعلى كتبغا خر قتيلا. وكان ذلك إيذانا بانهيار خطط المغول، لأن كتبغا كان من خيرة خبرائهم الحربيين، و"يعتمدون على رأيه وشجاعته وتدبيره، وكان بطلا شجاعا مقداما خبيرا بالحروب وافتتاح الحصون والاستيلاء على الممالك، وهو الذى فتح معظم بلاد العجم (فارس) والعراق، وكان هولاكو ملك المغول يثق به ولا يخالفه فيما يشير به إليه.

وذهل المغول من هذا القتل الذريع الذي حل بهم، وأرادت البقية من شجعانهم أن تستأنف الحرب، فجمعت صفوفها مرة أخرى، وهجمت على القوات المصرية فى شدة وعنف، حتى صار القتال أشبه بالزلزال من تقارع السيوف وآلات الحرب. وهنا صاح قطز مرة أخرى فى أثناء القتال "وا إسلاماه" ثلاث مرات تشجيعا لجنده، ودلالة على اشتراكه بنفسه فى الحرب، كما أخذ

يردد "يا الله انصر عبدك قطز على المغول" واستجاب الله سبحانه وتعالى لهذا النداء الذي يستهدف إنقاذ الإسلام والمسلمين، وحلت بالمغول هزيمة نكراء، قضت على معظم فرسانهم وشجعانهم. وعندئذ نزل قطز عن جواده :"ومرغ وجه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكرا لله تعالى".

وبرهنت مصر مرة أخرى على أنها "رباط الإسلام"، إذ جاء هذا النصر المصرى بعد أن عجزت الدولة الخوارزمية والخلافة العباسية عن مقاومة الغزو المغولى.

نصر رمضان المجيد/ أكتوبر ١٩٧٣:

يعتبر رمضان المجيد /أكتوبر١٩٧٣ رابع درة قدمها جيش مصر الباسل فى العصر الحديث إلى قلادة النصر الساطعة التى تتحلى بها مصر باعتبارها - كما قال الرسول الكريم ﷺ "رباط الإسلام" ذلك أن هذا النصر المجيد لم ينقذ مصر والأمة العربية والإسلامية من نكسة حربية فحسب، ولكن أقالها أيضا من نكسة حضارية، فى وقت صار فيه الخطر الحقيقى على أية أمة أن تتعثر خطواتها من الخروج من دائرة التخلف، أو أن تقوم فى العالم علاقات حضارية غير متكافئة تزيد الأقوياء قوة والضعفاء ضعفا.



عالمية الإسلام

فى القرآن الكريم والحديث الشريف :

يذكر فى القرآن الكريم مرارا أن كل رسول من رسل الله أرسل إلي قومه وحدهم ما عدا محمدا ﷺ، فنوح أرسل إلى قومه كما فى أول سورته يدعوهم إلي عبادة الله وتقواه، وبالمثل إبراهيم كما فى سورة العنكبوت فى قوله تعالى : ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ﴾

ولوط كما فى قوله – عز شانه – في سورة الشعراء : ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ﴾ وهو كما في سورة هود: ﴿ وإلي عاد أخاهم هودا .. ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ وصالح أرسل إلى قومه ثمود كما فى سورة الأعراف: ﴿ وإلي ثمود أخاهم صالحا ﴾ وشعيب أرسل إلي أهل مدين كما فى نفس السورة : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ﴾

وعيسى أرسل إلي بنى إسرائيل كما فى سورة الصف : ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم ﴾ .

أما محمد ﷺ فأرسل إلي جميع الناس، يقول الله – جل شانه – فى سورة الأعراف مخاطبا رسوله : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾ .

وذكر فى كتب التفسير أن هذه الآية نزلت فى جماعة من اليهود كانوا يقولون إن محمدا ﷺ نبى ولكنه نبى للعرب خاصة، والله يرد عليهم قولهم ويطلب منهم فى نفس الآية أن يؤمنوا به وبالرسول قائلا: ﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ .

والله – في الآية يشهد لرسوله بأنه مرسل إلي جميع الناس عربا وغير عرب. ويقول فى سور يوسف وص والتكوير فى وصف القرآن : ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ وفى سورة القلم : ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾.

وفسر ابن منظور كلمة ذكر فى الآية بأنها تعنى أن القرآن كتاب فيه تفصيل الدين، وكأنه يقول – تبارك اسمه – : ما القرآن إلا شريعة للعالمين. وكلمة العالمين جمع عالم بفتح اللام أى أن القرآن شريعة للعالم كله بجميع أجناسه وشعوبه. وجُمع لفظ عالم للدلالة على الاستغراق وأنه موجه للعالم جميعا شرقا وغربا وشمالا وجنوبا.

وقد تكررت الآية فى القرآن ردا على المشركين فى قولهم ما القرآن إلا أساطير كما جاء فى سورة الأنعام : ﴿يقول الذين كفروا إن هذا﴾ أى القرآن ﴿إلا أساطير الأولين﴾ أى قصصهم وأخبارهم التى كانوا يسمرون بها ليلا. وزعموا أنه سحر كما جاء فى سورة الصافات : ﴿و قالوا إن هذا إلا سحر مبين﴾ وقالوا إنه شعر كما جاء فى سورة الحاقة : ﴿وما هو بقول شاعر﴾

وقالوا إفك وكذب كما جاء فى سورة الفرقان : ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه﴾ أى كذب اختلقه، ويرد الله على ذلك كله بأن القرآن ذكر وشريعة للعالمين والناس جميعا.

ويخاطب الله رسوله فى سورة الأنبياء قائلا : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ فهو رحمة مهداة إلي الخلق كما جاء فى حديث نبوى : رحمة فى خلقه وجميع صفاته وشمائله، ورحمة بشريعته المهداة إلي العالم إذ بُنيت على الرحمة واليسر والتخفيف عن الناس.

وكان الرسول ﷺ يكثر فيها من التيسير والرخص مستضيئا بقوله تعالى

فى سورة البقرة : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ . وكان بعض الصحابة لا يأتى ما يذكره لهم من الرخص طلبا للمشقة فى العبادة إضاء لربه، فكان يضيق بذلك ويخطب فيهم ناهيا لهم عن الامتناع عن أداء الرخص فى الشريعة، لأنها قامت على الرحمة والرفق بالناس. ويقول الله لرسوله فى سورة سبأ ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾ فالله لم يرسل محمدا لقريش وحدها ولا للعرب وحدهم، بل أرسله للناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها ليبلغهم رسالته العالمية، مبشرا من آمن به، فوحد الله واعتنق شريعته الإسلامية وما بها من أحكام وأوامر ونواه بأن الله سيدخله جنته وينعم فيها نعيما أبديا، وينذر من أشرك بالله وعبد آلهة متعددة ورفض شريعته ورسالته بأن مصيره إلى النار وعذابها الأليم فى الآخرة.

ويكرر الرسول ﷺ فى أحاديثه أنه مرسل إلى الناس جميعا، ويقول ابن كثير فى تفسيره إن الأحاديث فى ذلك أكثر من أن تحصر وإن ذلك معلوم من الدين ضرورة. ويذكر مسلم فى صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست» منها قوله ﷺ: «أرسلت إلي الخلق كافة» وعن جابر بن عبد الله قال رسول الله ﷺ «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : كان كل نبى يبعث إلي قومه خاصة، وبعثت إلي كل أحمر وأسود.

والعرب تسمى الأبيض أحمر أى أنه بعث إلي البشر جميعا. وكان الرسول ﷺ يستشعر ذلك إلي أقصى حد، مما جعله يرسل إلي بعض القبائل يدعوها إلي اعتناق دين الله، ويكتب أصحاب السيرة النبوية فصولا عن بعوثه، ويعرضونها فى شكل غزوات، منذ السنة الأولى للهجرة، وهى إنما كانت لإبلاغ القبائل التى ذهبت إليها دعوة الإسلام، وظل الرسول يبعثها حتى فتحت مكة وأسلمت ثقيف سنة ثمان من الهجرة.

فأقبلت على الرسول وفود العرب من كل قبيلة ومن كل وجه يعلنون دخولهم فى الإسلام. وإيمانا منه بعالمية رسالته يرسل جيشا إلي مؤتة لإعلام الروم برسالته، ويلتقى بجيش لهم ولا يكتب له النصر. وفى السنة التاسعة من الهجرة تتوالى كتبه إلي الأمراء والملوك بدعوهم إلى اعتناق الإسلام، فيدعو النجاشى المسيحى ملك الحبشة وكسرى الوثنى ملك إيران وولاته فى شرقى الجزيرة كما يدعو هرقل المسيحى إمبراطور بيزنطة وأساقفة الشام وأمراءها والمقوقس صاحب مصر صادرا فى ذلك كله عن الوحى القرآنى وأن عليه أن يوجه دينه إلى أنحاء العالم.

وخرج بنفسه على رأس جيش لإبلاغ الإسلام إلى الشام، وبلغ تبوك وآثر العودة، ولبى نداء ربه فأتم أبو بكر وعمر للإسلام انتشارا عالميا عظيما، إذ أظل فى عهدهما العراق وإيران كما أظل الشام ومصر وشطرا من البلاد المغربية حتى تونس.



الفهرس

تابع الفهرس